مجاناً مع دبي الثقافية

رحلة في بلاد ماركيز

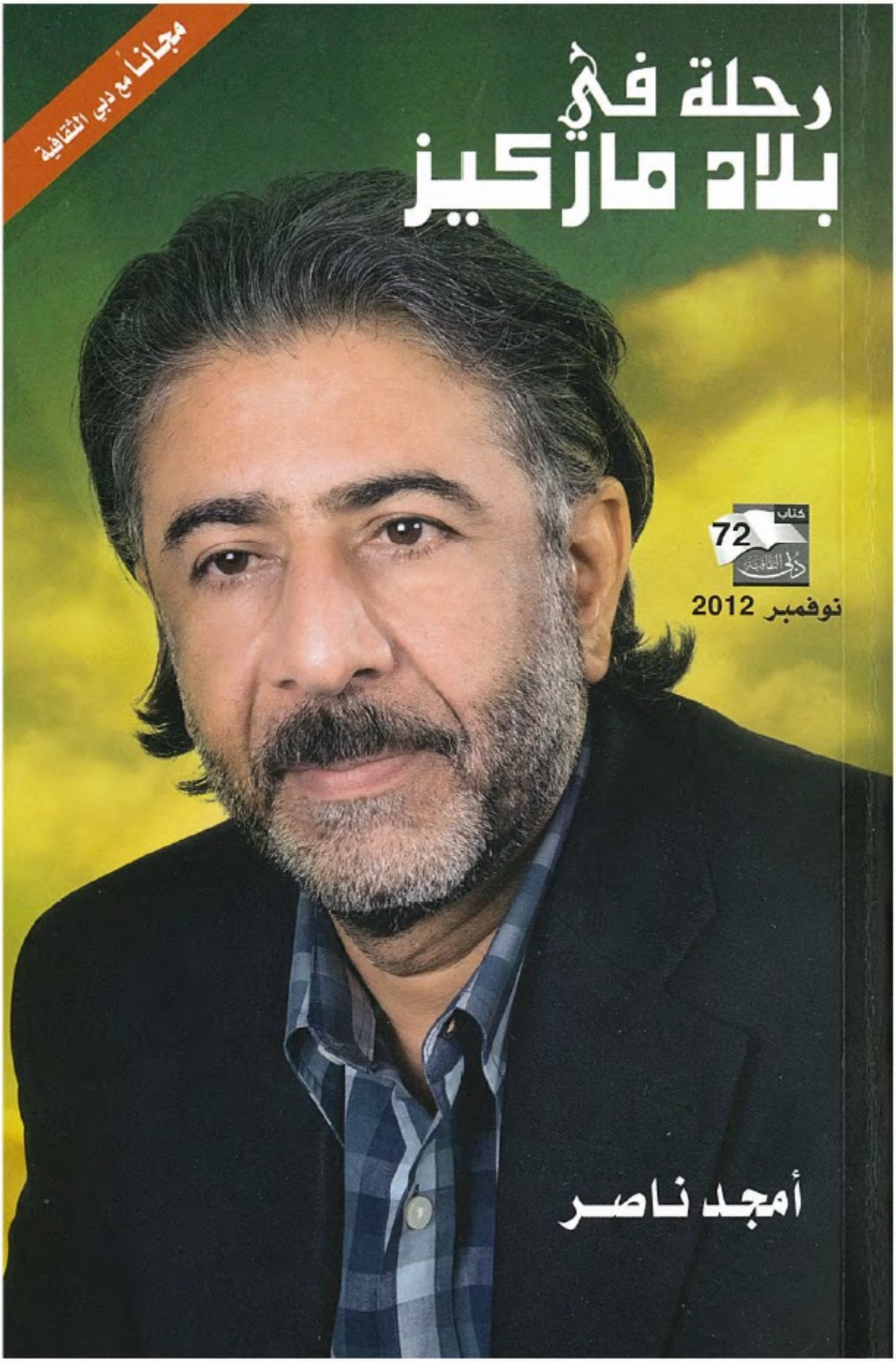

كتاب دبي الثقافية 72

نوفمبر 2012

أمجد ناصر

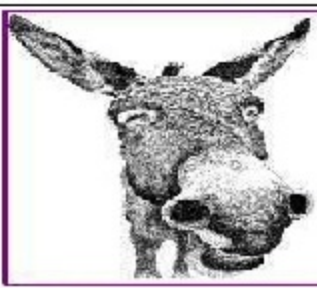

http://abuabdoalbagl.blogspot.com

أبو عبدو البغل

كتــاب

دبي الثقافية

يصدر عن مجلة دبـي الثقافية
ويـوزع مجانــاً مع المجلــة
الإصدار 72

رحلة في بلاد ماركيــز

أمجد ناصر

■ الطبعة الأولى، نوفمبر ٢٠١٢

كتاب دبي الثقافية

المدير العام رئيس التحرير
سيف محمد المري

مـدير التحرير
نـواف يـونـس

متابعة
يحيى البطاط
محمد غبريس

المـدير الفني
أيـمـن رمسيـس

الإخراج والتنفيذ
محمد سمير

مدير العلاقات العامة
محمد بن مسعود

مجلـة دبي الثقافية تصدر عن دار

الصدى

للـصحافـة والنشـر والتوزيـع

عناوين المجلة
www.alsada.ae

■ التحريــر والادارة دبي:
الإمارات العربية المتحدة دبي
منطقة الصـفا شارع الشيخ زايد
هـاتف: ٣٤٢٢٢٣٤ /٩٧١٤+
فاكس: ٣٤٢٢٦٦٦ ٣٤٢٢٩٢٩ / ٩٧١٤+
أبوظبي هــاتف: ٦٢٦٨٨٩٢ /٩٧١٢+
فاكس: ٦٢٦٨٨٨٣ /٩٧١٢+

■ الإعلانات والتسويق:
دبي شارع الشيخ زايد
برج المديـنة (٢) شقة ٤٠٢ ص.ب: ٢٩٠٦٦
هـاتف: ٣٣١٤٣٦٤ /٩٧١٤+
فاكس: ٣٣٢٢٢٩٢ /٩٧١٤+

■ التوزيع والاشتراكات:
هـاتف: ٣٤٩٠١٠٠ / ٩٧١٤+
فاكس: ٣٤٩٠٦٠٠ /٩٧١٤+

هذا الإصدار

بقلم: سيف المري

قراءنا الأعزاء، يسعدنا ويشرفنا في مجلة «دبي الثقافية» أن نتواصل معكم من خلال هذا الإصدار «رحلة في بلاد ماركين» للشاعر والإعلامي أمجد ناصر، محاولين التواصل مع جميع قراء مجلتنا على رغم الصعوبات التي يمر بها عالمنا العربي وهو يعيش هذه المرحلة الجديدة من تاريخه.

وها نحن ذا في «دبي الثقافية» نقدم لكم هذا الإصدار واضعين نصب أعيننا ما نذرنا أنفسنا له، وهو نشر الثقافة العربية وتقديمها للقراء الأعزاء من خلال كتاب «دبي الثقافية» الشهري، مع حرصنا على التنويع في شتى مشاربنا الثقافية، تعميماً للنفع، وحرصاً على محاربة الرتابة المفضية إلى الملل، ولن نألوَ جهداً في إضافة المزيد، وكل ما نتمناه من قرائنا الأعزاء هو التواصل معنا، وإتحافنا بآرائهم

وملاحظاتهم حول هذه الإصدارات التي نقصد بها خدمة الثقافة العربية، والتعريف برموزها، راجين إيجاد العذر لنا عند وجود أي تقصير.

والله من وراء القصد

رحلة في بلاد
مـاركيـز

أمجد ناصر

72
الإصدار «٧٢» نوفمبر ٢٠١٢

«أمالفي» المدينة المعلقة:
الجبل ليس سهلاً!

I

كان هناك شيء مختلف في الجو: الهواء، انقشاع السماء، سمرة الوجوه، الأصوات الرنانة الصادحة في كل اتجاه، لم يكن الأمر استثنائياً لرفيق رحلتي الذي يعيش في هذه البلاد منذ ربع قرن. لكن للقادم، مثلي، من الجهة التي تطل على الأطلسي الشاسع القاتم، الاختلاف واضح في كل شيء، فكيف يمكن لي أن أخطئ أنني صرت في جهة المتوسط؟

في عالم «المتوسط» الهواء يلعب خفيفاً. الشمس ساطعة. الألوان قوية. والعواطف لا تحفظ فيها كثيراً. ولولا أنني أعرف، سلفاً، أن طائرتنا حطت في «نابولي»، لنواصل الرحلة، بالسيارة، إلى «أمالفي»، لقلت إننا هبطنا في إحدى المدن العربية المتوسطية التي زرتها أو أقمت فيها من قبل.

يحلو لي الظن أن حواس المرء تعمل، في العالم المتوسطي، بجدارة: البصر، السمع، الشم، اللمس، والتذوق، وذلك، على الأغلب، بسبب الشمس القوية بلا إفراط، الطالة على البشر والطبيعة دوماً، التي تبلور الأشياء. تجعل لها حيّزاً وحدّاً، الشمس التي عبدها أناس في منطقتنا واعتبروها مصدر القوة والخير كلّه.

لم تكن سماء لندن، للمفارقة، غائمة في الصباح الحزيراني الباكر الذي استقللت فيه طائرة «أليطاليا» المتجهة إلى ميلانو بل كانت ترفل بنعمة الشمس، ولكنها شمس مؤقتة، مراوغة، تطلُّ لكي تختفي. تلعب مع هذه الجزيرة لعبة القط والفأر، لذلك تجد أناس هذه البلاد، الإنكليز الذين يحتملون كلَّ شيء لا يحتملون سماءهم طويلاً، فتراهم يفرون بأجساد «رنّختها» الرطوبة والظلال الثقيلة إلى أقرب وأبعد شمس.

شمس كبيرة، ساطعة بلا تردد في سماء لندن؟!

أعرف هذه الشمس التي ما إن تطلُّ حتى يخرج الإنكليز من قواقعهم وأصدافهم إلى العلن. يبادلون العابرين التحية ويصبحون، بمعجزة الشمس وحدها، ودودين. نسمع أصواتاً ذات لون ورنين: مرحى، مرحى، أي طقس رائع هذا؟! يا لهذا اليوم اللطيف! فيصبح الطقس الجميل هذا، إشراقته، إطلالته من رحم الرماد، مدخلاً للحديث والاحتكاك، وفتح أبواب النفوس الموصدة.

II

كان مخططاً أن ألتقي رفيق رحلتي لساعتين قبل انطلاقنا إلى نابولي، لكن بسبب تأخر طائرة «أليطاليا» التي أقلتني

من لندن إلى ميلانو لم ألتقه إلاّ عند بوابة الطائرة الأخيرة. ولولا أنني قطعت المسافة من الطائرة الأولى إلى الثانية على نفسٍ واحدٍ في قلب مطار ميلانو لكان عليّ أن أنتظر طائرة أخرى تقلّني إلى نابولي. أخبرته بالتأخير غير المفهوم للطائرة الإيطالية من لندن الأمر الذي كاد يفقدني، وغيري من المتخذين الوجهة نفسها، «الكونيكشن». فقال بهدوء يطبع شخصه وكلامه: هذا عادي جداً. لا تتوقع، هنا، دقة مثل الإنكليز. فالزمن عند الإيطاليين يشبه الزمن عند العرب، فهو مطاط ومرن أكثر من اللازم. فليس كل الأوروبيين سواء. وكان عليّ أن أختبر هذا الأمر، في طريق العودة عندما شلّ إضراب الملاحظين الجويين الحركة، تماماً، في مطار نابولي ولما عادت هذه الحركة، بعد نحو سبع ساعات، كانت الفوضى تعصف بالمكان. كان علي أن أجاهد، بكل قواي، كي أحصل على أي مقعدٍ، في أيّة طائرة تغادر نابولي، إلى أيّة وجهةٍ يمكن الطيران عبرها إلى لندن. حتى موظف الحجوزات في مطار نابولي لم يكن لديه ما يقوله لي سوى: أهلاً بك في إيطاليا يا صديقي! فقلت له ماذا يعني ذلك؟ قال هذا يعني أن لا تتوقع وضعاً كما هو الحال في مطار هيثرو، الإضرابات هنا تختلف عنها في بريطانيا، والمواعيد ليست بالدقة نفسها.

وفيما أنا أتميز غيظاً وارتباكاً كان موظفو وموظفات الشركة الإيطالية الناقلة يتكلمون في أجهزة الهاتف المحمول أو يتحدثون إلى بعضهم بعضاً كأن شيئاً لم يكن، بل كانت هناك موظفات يصلحن مكياجهن بين حين وآخر، وينظرن إلينا بلا أدنى شفقة.

هذه ليست زيارتي الأولى إلى إيطاليا. فقد سبق لي أن مكثت في روما ثلاثة أيام في أواخر عام ١٩٨٣، قادماً من تونس في طريق عودتي إلى نيقوسيا مقر إقامتي يوم ذاك، ولكن هذه أول مرة أدعى فيها إلى مهرجان شعري إيطالي. أما رفيق رحلتي فهو فوزي الدليمي الذي قدم أصواتاً شعرية عربية عديدة إلى اللغة الإيطالية ابتداء من أدونيس، حيث ترجم له أكثر من كتاب شعري، إلى سعدي يوسف، فعدد آخر من شعراء الأجيال اللاحقة. وفوزي الذي بدأ حياته شاعراً في بغداد، وله مجموعة شعرية طبعت هناك في السبعينيات، هو، إلى ذلك، فنان تشكيلي أقام معارض شخصية عديدة في إيطاليا وبعض البلدان الأوروبية.. وإن كان بعيداً عن أضواء الإعلام العربي لأسباب جغرافية (وجوده في ميلانو) وشخصية (خجله وميله إلى الانزواء) عكس استعراضية كثير من الفنانين العرب ونارية معظم العراقيين. وها هو منذ اللحظة يصبح دليلنا في

جنوب إيطاليا حيث سيكون عليه أن يتحمل تذمراتنا عند أدنى تعثر في الضيافة أو البرنامج.

III

كان شاعر من سردينيا يدعى «ألبرتو ماسلا» تصاحبه صديقته الموسيقية «فابيولا لديا» ومندوب من مهرجان «أمالفي» يدعى «بيترو» ينتظرون وصولنا. انطلق «بيترو» بالميني باص المعد لنا، مخترقاً بعض أحياء نابولي. لا يمكن أن تكون مدينة كنابولي من مدن الشمال الأوروبي. ليس، فقط، بسبب الشمس الكبيرة والوضوح الكامل للسماء، ليس، فقط، بسبب هؤلاء الذين يدخنون طوال الوقت ويتحدثون بصوتٍ عالٍ ويحركون أيديهم كأنَّ الكلام وحده غير كاف للتواصل، وتتلامس أجسادهم بلا حرج، بل بسبب هذا كلّه مضافاً إليه معمار المدينة، انفتاح البيوت على الهواء والسماء من خلال الشرفات أو «البرندات». شرفات كهذه نادرة في مدن الشمال الأوروبي وإن وجدت فللزينة فقط، بينما الشرفة في نابولي (كما هو الشأن في مدن المتوسط العربية) طراز حياة. للشرفات حياة كاملة. الذين يقيمون في بيوت ذات شرفات، أو «برندات»، يعرفون ما أقول. ففيها تشرب القهوة في الصباح،

وينشر الغسيل بألوانه المتضاربة، ومن تجاورها، جنباً إلى جنب، أو إطلالتها، على بعضها بعضاً، يتناقل الجيران أخبار الحي وتفشى أسراره المعلنة، ومنها تبدأ أولى خفقات القلوب الصغيرة وتضرب المواعيد وتتفوح روائح الطعام. الحياة المتوسطية تعاش في الهواء الطلق، بينما تنسحب الحياة الأوروبية الغربية (بريطانيا، مثلاً) إلى الدواخل لتسدل عليها الستائر الثقيلة كأنها سر، أو فضيحة تنبغي مداراتها بالحجب والكتمان. حياتان مختلفتان تماماً. الأولى عنوانها الشرفات. والثانية أحشاء البيوت. الضوء. الهواء. الفضاء المفتوح. هي العناصر التي تنشر قلوع الأولى في الخارج ويدفع، غيابها، بالثانية إلى مضائق الداخل.

أتذكر جيراني في «الطريق الجديدة» في بيروت. رجال بـ «الفانيلات» ونساء في ثياب النوم، يتبادلون الأحاديث بصوت عال، يشربون القهوة أو يدخنون الأراجيل، فيما المحال الصغيرة تعرض بضاعتها على الرصيف. أتذكر، كذلك، سهرات شباب الحي لوقت متأخر في الليل أمام محل البقالة أسفل البناية التي كنت أقطن فيها.. كانت أصواتهم، وهم يلعبون الورق أو الطاولة، تصل إلى الطوابق العليا في البنايات المجاورة.. دون أن يحتج، غالباً، أحد.. فالنوم، في مثل هذه الأحياء، يأتي متأخراً.. وهو الشيء الوحيد الذي يحدث في

الداخل.. عدا ذلك كل شيء، تقريباً، يحدث في الشرفات: الأكل، الشرب، السهر، البصبصة، النميمة المنعشة، الكتابة (لواحد مثلي!)

لا أعرف، بالضبط، أين رأيت صورة أنطونيو تابوكي، الذي طالما ظننته برتغالياً لولعه بشاعر البرتغال ذي الوجوه الخمسة والانفصامات التي لا التئام لجروحها المسرية. قد أكون رأيتها في مجلة أو صحيفة أو ربما على غلاف كتاب. ليس مهماً أين رأيتها، ما دام الأمر لا يتعلق بتوثيق شيء ما. فالصورة ليست مرجعاً ينبغي ذكره، وأنا لست باحثاً أو موثّق عقود. المهم هو الصورة ولا شيء غيرها. في الصورة تلك يظهر تابوكي جالساً، بشيء من الدعة والاسترخاء، على حائط «برندة» وبجانبه فنجان قهوة، وفي طرف الصورة، على حائط «البرندة» المغمور بضوء قوي، تبدو أصص ورود أو نباتات زينة في «تنكات» لم أتبين ماركتها تماماً. هناك كتابة ولكنها غير واضحة. كانت النبتة الأقرب إليه، على ما أظن، نوعاً من «العطرية» أو الجيرانيوم، كان بامكاني أن أشم رائحتها. ففي مدخل بيت على بوابة الصحراء كانت هناك يدٌ خضراء تمكنت من جعل تلك النبتة العطرية القوية ابنة طبيعية لبيئة تطقطق من الجفاف.

الإضاءة القوية التي تعري كل التفاصيل وتبرزها،

كمجسمات منمنمة، توحي بأن الصورة التقطت ظهراً. إنها الظهيرة التي سماها كاتب عاش في الفنتازيا كما لو أنها واقعٌ حيّ: ساعة اللاظل، أي في الوقت الذي تقف فيه الشمس على رؤوس الكائنات والأشياء، تماماً، وتحررها من الاستطرادات عديمة الجدوى.

أعادت الصورة إليَّ، على بساطتها وتقشف محيطها، هناءات صغيرة مندثرة، عندما كان لي ذات يوم بعيد، أنا الذي يقيم في بلد قاتم وبارد يدعى إنكلترا (رغم أن الناس هنا يتحدثون عن فصول متعاقبة، فيسمون أحدها صيفاً!) بيت ملفق التصميم تضاف إليه غرفة ومرافق كلما تزوج فرد في العائلة. كما نجحت الصورة، بسهولة منقطعة النظير، في استدعاء صورة أخرى: شاب بشعر طويل يجلس، مثل جلسة تابوكي، على طرف «برندة» بيت تحيطه تنكات ريحان ونعنع وأصص زهور لها أفواه صغيرة لاهثة كأسماك صغيرة خارجة، تواً، من الماء. كان هذا أول شيء لفت نظري في نابولي: الشرفات. لفتت نظري، كذلك، حبال الغسيل التي تخفق فيها، منذ وقت طويل لم أر غسيلاً يتدلى من شرفات أو نساء يعلقن غسيلهن بالملاقط على حبال مثبتة خصيصاً لهذا الغرض. ثياب بألوان متنافرة تجفُّ في الهواء المتوسطي.

لا يختلف معمار الأحياء التي رأيتها في نابولي كثيراً عن معمار بعض أحياء الإسكندرية، أو بيروت، أو الدار البيضاء: بنايات من عدة أدوار (أربعة أو خمسة) معظمها كونكريتي، مكلل بقرميد أحمر. هذه أحياء الضواحي. فنحن لم ندخل قلب المدينة التي يتعين علينا أن نمرّ به في طريق العودة. هناك، أيضاً، النباتات التي يتوقعها المرء في عالم المتوسط: التين بأوراقه الخضراء الداكنة العريضة ورائحته الحريفة، الكرمة التي تتدلى منها عناقيد حمراء وبيضاء لم تنضج بعد، أشجار «الصبار» التي لا بدَّ أن يكون اسمها مشتقاً من الصبر، لمثابرتها العجيبة على البقاء في ظل أصعب الظروف، تستخدم، كما هو دأبها دائماً، كحدٍ أو سياجٍ بين البيوت، أشجار الحور النحيلة السامقة ذات الورق الأخضر الفاتح واللحاء الأبرش. كما لا يعدم أن ترى نخلة هنا ونخلة هناك.

كان «ألبرتو ماسالا» ابن جزيرة سردينيا يتحفز ليبدأ حديثه معنا. فهمت من «ماسالا»، الذي يتحدث إنكليزية لا بأس بها، أنه يكتب بثلاث لغات. لغته الأولى السردينية التي هي أقرب، كما زعم، إلى لغات شرق المتوسط القديمة (كالفينيقية) منها إلى اللغة الإيطالية، فضلاً عن اللغة الإيطالية التي يعتبرها لغة المستعمر واللغة الفرنسية التي يجيدها. فاجأني «ماسالا»

بالقول إن شعبه السرديني ذا الأصول الفينيقية (كما يصرّ على القول) هو آخر شعب في «أوروبا» (هو لا يعتبر سردينيا أوروبية على كل حال) يتحول إلى المسيحية بعد أن ظلَّ يعبد آلهة قرطاجية . فـ «التانيت»، الذي أصبح شعاراً لمهرجان قرطاج السينمائي في تونس، له قدسيته عند السردينيين أيضاً!

قال إن مدينة «بنزرت» التونسية أقرب إليهم من روما. وهذا صحيح، بطبيعة الحال. لا أستغرب الكلام عن الفينيقيين وعلاقتهم بالمتوسط، فحيثما التفت، على ضفتي هذه البحيرة الكبيرة، ثمة أثر لهم. عرفت هذا في قبرص عندما كنت أقيم فيها. نعرفه، كذلك، من الممالك التي قامت في شمال أفريقيا، كما أن اسم برشلونة القديم «بارسينو» ينسب إلى «هاملسار بارسا» والد «حنا بعل» القرطاجي الفينيقي. ويبدو أن اسم سردينيا القديم «سردوس» يعود إلى ابن «هركل» ملك صور! كلام «ماسالا» عن «أصوله» الفينيقية ليس مجرد زعم لا أساس له من الصحة، ولكن هل ينطبق هذا على اللغة السردينية كما قال؟ لا أعرف. في كل حال يكتب «ماسالا» الشعر ليقدمه في «عرض» تصحبه فيه آلة موسيقية، متأثراً بالشعر المرتجل الذي لا يزال له، حسب قوله، وجود وتأثير في سردينيا.

قال لي: لديكم في العالم العربي مثل هذا الشعر. إنه ليس

شعراً رسمياً، بل يصدر من حياة الناس، كما يمكن لبعضه أن يكون ابن لحظته. الشعر عند «ماسالا» ليس مجرد تلبية لحاجة جمالية متعالية، بل احتجاج. إسهامٌ في فضح الظلم والفساد. إنه شاعر قضايا، كما كانت عليه الحال في شعرنا العربي قبل نحو عقدين قبل أن تصبح كلمة «قضية» مثيرة لسخرية الشعراء الجدد واستهجانهم. لكن «القضايا» التي قدَّمها في «عرضه الشعري» في اليوم الثاني للمهرجان لم تكن متجهمة. فهناك غناء وموسيقا وسخرية وحركة على المسرح.

عرفت من «ماسالا» أنه صديق للشاعر الطوارقي «خواد» (أو عواد كما هو في لفظه العربي) الذي سبق والتقيته في مهرجان شعري في مدينة «لاروشيل» الفرنسية أشرف عليه الكاتب العراقي جبار ياسين. و«خواد» مثل «ماسالا» يقدم «عرضاً شعرياً»، ولكنه أقرب إلى طقوس السحر منه إلى «الاستعراض الشعري» بالمعنى الغربي. كان «خواد» يقرأ كأنه يُرْقي شخصاً ممسوساً. كأنه يعزّم. بدا لي، وقتها، أن الشعر عنده قرين «الكهانة»، قريب من لحظة ولادته الأولى، وفيٌّ لوظائفه الروحية القديمة. كان يبدو بعوده النحيل الطويل وزيه الطوارقي الكحلي وعينيه المكحلتين ولمَّة رأسه الأفريقية الكبيرة أقرب إلى «شامان»، (لكنه «شامان» مسلم!)

منه إلى شاعر.. الغريب أن «خواد» كان يقرأ قصائده المكتوبة على ما يشبه الرقاع ولكن الورقية، أما الأبجدية التي بدت لي مثل رسوم أو رموز فقال إنها تسمى «تيفناغ»، وهي فينيقية الأصل.. أيضاً!

أتذكر أنه كان يحمل قرآناً صغيراً ويقرأ منه قبل الأمسيات الشعرية التي شاركنا فيها معاً في «لاروشيل». كانت عربيته جيدة، فهو تعلم القراءة والكتابة في ليبيا حسبما أذكر. لم يكن يعنيه لغطنا العربي عن «الحداثة» وعلاقة شعرنا (بل علاقتنا كنخب عربية) بالغرب، فهو لا يرى أن لدى الغرب ما يقدمه لنا على المستوى الروحي والوجداني، بل حتى على المستوى الشعري. قال لي يومها: أنت لا تعرف الفرنسية ولكن شعر زملائنا الفرنسيين الذين يشاركوننا المهرجان ميت، مجرد ألفاظ مرصعة لا روح فيها. صناعة كلام. لم أقتنع، وقتها، بإلحاحه على «أصالتنا» واكتفائنا بها ولا أظن أني غيرت رأيي مذاك. فهو يظن أن علاقتنا، كعرب، مع الغرب هي التي أفسدتنا وأذهبت ريحنا!

قال «ماسالا» إنه سيذهب إلى فرنسا بعد نهاية هذا المهرجان وسيقوم بـ«جولة شعرية»مع «خواد» فقلت سلّم لي عليه.

IV

كان يتعين علينا أن نمرَّ في طريقنا إلى «ساليرنو» (ومنها إلى أمالفي) بمحاذاة بركان «فيزوف» الشهير الذي قرأنا عن ثورته العارمة في مناهج الدراسة. لم ينطفئ هذا البركان القديم ولم تخمد الحمم، تماماً، في أحشائه النارية. فقد كان هناك دخان وبخار يتصاعدان من إحدى فوهاته. وقفت برهبة تحته. لكن رهبتي زالت وأنا أرى بشراً يعيشون بالقرب منه. قال فوزي الدليمي إن البركان لا يزال نشطاً، فهو يثور بين حين وآخر ولكن ليس إلى حد يشكل فيه خطراً حقيقياً على محيطه. رأينا بيوتاً عند كعب الجبل وأناساً وحيوانات ترعى بالقرب من البيوت.. بكل اطمئنان. قال فوزي إن الأرض في هذه المنطقة مزهود فيها. فمن يرغب في أن يجاور بركاناً نشطاً إلاّ من لا يملك بناء بيتٍ وامتلاك حقلٍ في مكانٍ آخر؟ لقد حاولت الحكومة أن تخرج هؤلاء المواطنين من هذه المنطقة ولكنها لم تستطع.

فكرتُ: كيف يمكن للمرء أن يشاطر بركاناً السكنى وأن ينام، مطمئناً بجانبه؟

ليس «فيزوف» الذي تراه وأنت ذاهب إلى «ساليرنو»، المكان العلم الوحيد في هذه الجهة من إيطاليا، بل تمكن رؤية

أطلال واحدة من أكبر ضحاياه طراً: مدينة «بومبي» الشهيرة التي ضربها زلزال مدمر عام ٣٦ للميلاد، ثم قضت عليها ثورة بركان «فيزوف» عام ٧٩ . ويبدو أن فيزوف، حسب إحدى الروايات التاريخية لذلك الحدث المريع، ظل يقذف رماداً ودخاناً لعدة أيام قبل ثورته الأولى لذلك رحل معظم سكان البلدة عنها، وعندما ثار البركان وحلت الكارثة على المدينة لم يكن هناك الكثير من السكان. لكن رواية أخرى تقول إن البركان فاجأ الأهلين في ثورته العارمة ولم يتمكن من الفرار سوى قلة، بل إن من فرَّ خنقته الغازات التي صاحبت ثورة البركان. هناك تضارب أيضاً في عدد سكان المدينة ولكن التقديرات تقول إنهم كانوا في حدود ١٠ آلاف، ويعتقد أن ٢٠٠٠ شخص قضوا في بيوتهم، أو في شوارع المدينة وهم يحاولون الفرار، البيوت والشوارع طمرت قروناً تحت طبقات من الرماد الصلب، ولم يكشف النقاب عن هذه المدينة المنكوبة سوى في القرن الثامن عشر. لعل «بومبي» هي المدينة الوحيدة في العالم التي حافظت على لحظة ثابتة من التاريخ. لحظة جمدتها حمم البركان إلى الأبد. فهناك بشر صاروا مومياوات حجرية. كل ما كان في «بومبي»، قبل أن تطمر تحت طبقات من الرماد، ظل محتفظاً بهول الكارثة، حتى ليمكنك أن ترى أماً تحضن

طفلها ذا السنين الأربع لتحميه من العصف مجمدة في هيئة الرعب التي رأتها في تلك اللحظة. أحد الناجين من الكارثة، يصف اللحظة المريعة التي ثار فيها البركان قائلاً في رسالة إلى أحد مؤرخي عصره: إن السماء أظلمت، فجأة، كما لو أنها غرفة مغلقة!

أطلال المدينة تلوح عالية ومعتصمة بغموض ميتافيزيقي، برهبة الواقعة التي، أحيلت، في واحدة من التفسيرات الأخلاقية إلى ما عرفته المدينة من تهتك وسهر سادر كان يصل الليل بالنهار! نقترب من أطلال المدينة. هناك أفواج من السياح يدخلون ويخرجون. تشمخ أعمدة المباني والمرافق في مدينة منكوبة. ذكرتني تلك الأعمدة التي صمدت، على ما يبدو، في وجه البركان بعشرات مثلها في الأردن، خصوصاً، في مدينة جرش الرومانية.

إذا كانت أطلال «بومبي» تُرى من بعيد فإن «ساليرنو»، أو بالأحرى قبة جامعتها التي تعتبر أقدم جامعة في إيطاليا، تُرى هي، أيضاً، من مسافة بعيدة. ما إن دخلنا «ساليرنو» حتى صارت الطريق أضيق وأقل انبساطاً من تلك التي سلكناها من «نابولي». منذ الآن يتعين علينا أن نسلك طريقاً جبلية ضيقة متعرجة تطلّ على البحر مباشرة حتى نصل إلى «أمالفي»

مارين ببضع بلدات صغيرة تتعرش على هذه السلسلة الجبلية التي تواجه بحراً أزرق يتلألأ تحت الشمس الحزيرانية التي بدأ عزمها يشتد.

لم أمر من قبل بطريق ضيقة وخطرة إلى هذا الحدِّ، فهي بالكاد تتسع لمرور سيارة واحدة مع أن السيارات تعبرها بالاتجاهين. طريق منتزعة، بالقوة، من الجبل الذي لا سفح له. فهو يشكل، في بعض أجزائه، ما يشبه زاوية قائمة مع البحر.

كان سائقنا «بيترو» يضطر، بين حين وآخر، إلى أن يتنحى بـ«الميني باص» جانباً ليسمح لسيارة أخرى قادمة من الاتجاه المعاكس بالمرور. كيف يمكن للمرء أن لا يعتبر السياقة في هذه الطريق، الملتفة كأفعى بين ثنيات الجبل وانعطافاته، أمراً فذاً؟

علمت أن هذه الطريق، وتحديداً تلك التي تصل بين «فيتري» و«بوستيانو» بناها ملك نابولي «فيردناند» الذي ينتمي إلى «آل بوربون» في القرن التاسع عشر. إنها الطريق نفسها التي نسلكها الآن بلا توسعة أو إضافة، على ما يبدو، غير تجديد إسفلتها بالطبع. وليس هناك، على كل حال، الكثير ليفُعل على هذا الصعيد. ليس هناك سوى وعر الجبل وشفيره الذي يطل على بحر بالغ الزرقة.

تذكرت، ونحن نسلك هذه الطريق، فيلماً إنكليزياً قديماً تدور بعض أحداثه في إحدى مناطق إيطاليا وتطارد فيه سيارة بطل الفيلم سيارة أخرى في طريق كهذه. مطاردة تقطع الأنفاس على طريق معلقة على حافة جبل وتحتها، في الأسفل على بعد عشرات الأمتار، تنفتح لجة البحر.

ويبدو أن «أمالفي» ومحيطها قد ظهرا في أكثر من فيلم سينمائي أوروبي وأمريكي كما أخبرني، لاحقاً، موظف الاستقبال في الفندق الذي نزلنا فيه، فقد ذكر أسماء بعضها ولكنني لم أعرف واحداً منها.

مذ سلكنا هذه الطريق التي استغرقت نحو ساعة تقريباً حتى وصلنا إلى «أمالفي» والبحر على يسارنا، البحر الأبيض المتوسط في أتم صوره: مياه زرقاء لامعة ونظيفة تترقرق حتى ليخطر لك أن تقبل عليها وتشرب، خصوصاً في ظهيرة حامية كتلك التي توقفنا فيها عند مقهى في منتصف المسافة بين «ساليرنو» و«أمالفي» لنحتسي شيئاً ولكننا وجدنا المقهى محجوزاً لعرس. كانت طليعة العرس قد وصلت فعلاً. نساء ورجال يرتدون ثياباً أنيقة للمناسبة، يقفون أمام المقهى بأيدي بعضهم كاميرات، يدخن معظمهم ويتحدث بانفعال، بانتظار وصول العروسين اللذين وصلا، فعلاً، قبل أن نغادر.

كان ينبغي أن يفسحوا لنا طريقاً كي نمر. انتظرنا، بفضول، ترجل العروس والعريس من السيارة المزينة بالأزهار. العروس شابة في العشرينات. ذات وجه حنطي مشرب بالحمرة. أنف روماني. عينان سوداوان تشعان ببريق الفرح، ترتدي فستان زفاف «بيج» وليس أبيض، طرحة بيج مشغولة بالدانتيلا، حذاء بيج كعب عال. عروس سكرية. ترفع فستانها الضافي وتمشي الى الثلة المنتظرة. يتبعها شاب أطول منها قليلاً، برونزي البشرة، بشعر مصفوف بقوة (بالجل أو الواكس على الأغلب) إلى الوراء، يرتدي بدلة سوداء وقميصاً أبيض ووردة في عروة سترته، ثم يتأبط ذراعها. يقبلها، فتطقطق الكاميرات، ويتعالى الهرج المرح. فكّرت بـ «ليلة دخلة». لكن ليس هنا، أغلب الظن، «ليلة دخلة» بالمعنى الذي فكرت فيه. أقصد ليلة أولى لا سابق لها. ولكن من يدري؟

وها نحن ندخل «أمالفي».

الوقت ظهراً.

رائحة البحر قوية ونفاذة.

كذلك روائح الأكل، السمك خصوصاً.

البلدة تفور بفتيان وفتيات بلباس البحر.

كان هذا المشهد المدني، المسترسل في حياة عادية، مفاجئاً في انبثاقه من الطبيعة الوعرة للمنطقة.

ليست «أمالفي» مدينة، إنها جبل. ليست جبلاً، بل صدره فقط. من صدر الجبل الضيق اجترحت هذه المدينة، شقّت طرقها وأقيمت بيوتها بين السماء والبحر. من نقطة معينة في الأسفل يخيّل إليك، وأنت تنظر إلى البيوت التي تتشبث بأي شيء في هذا الجبل، أن بإمكان سكان الصف الأخير من البيوت أن يلقوا أنفسهم، مباشرة، من شرفاتهم إلى البحر. فلا توسط بين الجبل والبحر سوى هذه المنعرجات التي تسمى طرقاً وهذه الاتكاءات التي تنهض عليها البيوت وتسمى أرضاً. تبدو «أمالفي» لمن ينظر إليها من بعيد (... وهذا ما لاحظته عندما غادرتها على متن عبّارة إلى ساليرنو) كأنها مجرد ديكور. بيوت مرسومة على جدارية كبيرة وليست بيوتاً مأهولة بأنفاس بشر يغسل المتوسط عيونهم كلّ صباح بأزرقه الشفاف.

زرت مدناً كثيرة، يتكشف معظمها على دفعات. ترى ضواحيها، أطرافها من بعيد، إلاّ «أمالفي» التي تطلع إليك، كلّها، من وراء آخر لفّة في الطريق المتعرجة. إنها لا تُرى، بوجهها الأبيض، إلاّ إذا جئتها من البحر، أما القادم من منعرجات ومطاوي الجبل فعليه أن ينتظر المفاجأة التي يخبئها له الجبل.

يخطر للمرء أن يتساءل، بنزق، وهو يرى إلى هذه المدينة المضغوطة بشدة، هل ضاقت الأرض بسكان «أمالفي» الأوائل حتى يقيموا مدينتهم على ما يشبه الصخرة؟ في صدر جبل ليس فيه منبسط من الأرض وصولاً إلى شاطئ ذي صخر وحصى؟

إن هذا، تُفكر، تدبير لا يليق إلاّ بالفارين أو الرهبان المنقطعين عن أرض لا تدركها أقدام البشر وآلاتهم بسهولة. وما إن تتلفظ بهذا التساؤل، المحمول على نزق يثيره ضيق المكان ووعورة طبيعته، حتى ترى البرهان الحاسم، العلامة المؤيدة لهذا الظن تلوح من بعيد: إنه دير معزول في قمة الجبل!

أوصلنا «بيترو» إلى فندق يسمى La Bussola حيث كان المنظمون قد حجزوا لنا غرفاً فيه. الفندق مريح. أهلي الطابع. بينه وبين البحر عرض الشارع فقط. لكن غرفنا لم تكن، لسوء الحظ، تطل على البحر بل على صخرة وجرف. كان المنظر مقبضاً لي. فقد كنت أمنّي النفس بإطلالة على البحر. طلبت تغيير غرفتي بواحدة تطل على البحر. لكن المسؤول الذي قابلته لهذا الغرض أكد أن كلّ غرف الفندق المطلة على البحر مشغولة وأنه لا يتوقع أن تشغر واحدة منها قريباً. قال إن «أمالفي»، كما ترى، مدينة سياحية، والفنادق فيها محدودة لذلك لا تتوقع أن تجد غرفاً في فنادقها بسهولة. انتهى الأمر

بأن غيروا غرفتي بواحدة، في الجهة نفسها، ولكنها تطل على منظر أقل جهامة. منظر سيكون أول شيء أراه كل صباح: جرف، فوقه طريق، فوقها كمشة بيوت، بينها وفي محيطها الأشجار والنباتات التي ما زالت تنمو في ذاكرتي.

V

على قمة ومنحدرات جبل «لاتري» تتربع بيوت المدينة العريقة التي يصعد إليها الأهلون من خلال طرق ضيقة ومتعرجة، ذكّرتني بالطرق التي تصل بين قلب عمّا ن وبعض الأحياء المقامة على التلال المحيطة به.

ويبدو أن هذه المنطقة كانت مشهورة، في الأزمنة القديمة، بإنتاج الحليب لكي تستحق تسمية: جبل الحليب. فـ Latte بالإيطالية تعني الحليب، مع أن المرء يستغرب كيف تمكن تربية المواشي في منطقة وعرة كهذه، اللهم إلاّ إذا كانت ماعزاً؟ فالماعز، الماكر، واسع الحيلة، هو سيد الوعر. على الأرض القليلة التي انتزعها الأهلون من الجبل أقاموا بيوتهم ومزارعهم، لذلك تراها مكومة فوق بعضها بعضاً. فمن الصعب أن تبني، هنا، حياً وفق خطة هندسية. فالجبل لك بالمرصاد. والجبل ليس سهلاً!

حتى اللحظة التي غادرنا فيها الفندق إلى المطعم الذي

كان ينتظرنا فيه المشاركون في المهرجان الواصلون قبلنا إلى المدينة كانت اللمحات، التشابهات مع العالم العربي المتوسطي تطالعنا هنا وهناك. لمحات وأوجه شبه متوقعة في مكان «متوسطي» كهذا، ولكنني كنت خالي البال بما يتعدى ذلك.

فما أن وصلنا إلى «ساحة دومو» (بيازا دل دومو) حتى صرنا وجهاً لوجه أمام بناء مهيب ومحيِّر.

فلولا الصليب الصغير الذي يعلوه، لقلتُ إنه جامع، بل لحملني الظن على القول إن واجهته محاكاة لإحدى واجهات الجامع الأموي في دمشق. بالنسبة لي كان الشبه بين هذين الصرحين قوياً إلى هذا الحد. عزز ذلك، إلى الواجهة العريضة والنقوش والرسومات التي تحتويها، جدل الحجر الأسود والأبيض، الأعمدة المستدقة، الأقواس المتطامنة، المنارة المربعة التي صارت نموذجاً للمنارات في الغرب الإسلامي. نقلني هذا التشابه إلى أمكنة أخرى. دمشق مرة، الأندلس مرة ثانية، المغرب مرة ثالثة. ليس ذلك البناء المهيب، المهجَّن والمألوف سوى كاتدرائية «أمالفي» مفخرة المكان ونقطة ارتكازه.

قليلة هي العمارة التي رأيتها تمزج خصائص معمارية

ووظيفية مختلفة بهذا القدر من الأريحية، من التقبّل والإدماج. فهناك، كما نعرف، كنائس تحولت مساجد ومساجد تحولت كنائس وكاتدرائيات بقليلٍ أو كثيرٍ من التغيير والتعديل الوظيفيين. مثال ذلك جامع قرطبة الذي صار كاتدرائية بإضافة القليل من اللمسات والرموز المسيحية إلى المعمار، ثم إن الجامع الأموي، نفسه، أقيم (في جزء منه) محل كنيسة بيزنطية واستفاد من بعض معمارها بل ومن أعمدتها وحجارتها أيضاً. ثم هناك كنيسة «آيا صوفيا» قلب العالم البيزنطي التي حوّلها العثمانيون إلى واحد من أشهر مساجد العالم!

لكن كاتدرائية «أمالفي» لم تكن جامعاً. بل شيدت، أساساً، ككاتدرائية تنهل من أشهر عمارة يومذاك: العمارة العربية الإسلامية.

ليس الأثر العربي في معمار الكاتدرائية، التي تطلع إليها بأدراجٍ حجريةٍ عريضةٍ، الوحيد الذي يرنو نحو الجهة الأخرى من المتوسط بل التأثيرات البيزنطية كذلك، فـ «أمالفي» تدين لبيزنطة بأشياء كثيرة، فقد دخلت في أملاكها مرة ووقعت تحت حمايتها مرة أخرى.

وعندما دلفنا، لاحقاً، إلى الكاتدرائية وتجولنا فيها، ثم في

الأروقة التابعة لها، تكشفت لنا المؤثرات العربية في معمارها أكثر مما بدا ظاهراً.

(.. أتذكر وقوف محمد بنيس أمام الزليج في قاعة ملحقة بالكنيسة، هي أشبه بمتحف يضم بقايا آثار تعرضت للدمار بسبب الأمواج العاتية التي دمرت، على ما يبدو، قسماً كبيراً من المدينة، بنوعٍ من التأمل الخاص الذي أعاده إلى أماكن عديدة في بلاده المغرب).

خطر لي لحظتها التساؤل التالي: هل يتوقف السائح الإيطالي أمام الآثار الرومانية المنتشرة في طول وعرض العالم العربي بالطريقة نفسها التي يقف فيها العربي أمام آثار حضارة أسلافه أو مؤثرات هذه الحضارة في الأقوام والحضارات الأخرى؟ هل يشعر أن هذه الآثار تعنيه، تخصه، مثلما نشعر نحن؟

تذكرت، وأنا أتساءل، أن كثيراً من السياح الذين رأيتهم في المواقع السياحية الأردنية، كانوا إيطاليين في سن متقدمة. معروف أن القسم الأكبر من آثار ما قبل الإسلام في بلادنا هي رومانية، سواء تعلق الأمر بروما نفسها أم ببيزنطة جناحها الشرقي. فإذا كان الإيطاليون يقفون أمام الآثار الرومانية وقفتنا أمام الآثار العربية أو التأثيرات العربية في حضارات

الأمم الأخرى فهذا يعني أن العودة إلى الأصول ليست تقليداً عربياً.

هذا يعني أننا لسنا وحدنا من يقف أمام «الأطلال»، لكن مع فارق واحد، ربما، هو أننا الوحيدون الذين نبكي عليها!

لم يكن المطعم بعيداً عن الساحة نفسها.

ما إن دخلنا المطعم الصغير حتى هبَّ الحاضرون، الذين لعبت ابنة الكرمة في رؤوسهم، إلى التسليم علينا بحرارة أربكتنا. فقد أبدوا لنا لهفة من ينتظر أصدقاء قدماء بفارغ الصبر. كنا فعلاً آخر الواصلين إلى هذه المدينة القرية. هذا الكارت بوستال السياحي المتوهج بالذهبي والأزرق. ولمّا لم أكن معتاداً، بعد سنين طويلة من الإقامة في الغرب، على هذه الحميمية الفاقعة من الأوروبيين، الذين نادراً ما تتلامس أجسادهم، فقد تضاعف ارتباكي. فانكمشت. احتجت وقتاً كي ألمّ بأطراف المشهد الصاخب، المترنح، وأشارك بقسط من قصفه. كانت الإنكليزية باللهجة الأمريكية تتطاير في أرجاء المطعم الحميم. كان الندل الصغار في السن يتحركون بحماسة بين الطاولات يلبون الطلب المتزايد للشعراء على الترنح وانعقاد الألسن والخفة الداخلية التي تضرب صفحاً عن ثقل الأجساد. ويبدو أنهم كانوا سعداء بأداء هذه المهمة

«الباخوسية». فهم لم يروا، على الأغلب، شيئاً كهذا من قبل، خصوصاً من لدن شعراء.

لم أكن أعرف، ولا يبدو أن فوزي الدليمي دليلنا إلى هذا المنتجع السياحي (الذي يجعل المرء يفكر، للوهلة الأولى، أن آخر ما يهم أهله هو الشعر)، كان يعرف المشاركين في المهرجان. كل ما أعرفه أن شعراء من بلدان أوروبية وأمريكا سيشاركون فيه. لذلك استغربت، وأنا أتخذ لي مجلساً بجانب شاعر أمريكي ضخم الجثة، يرتدي زياً شبه أفريقي، كثرة المتحدثين بالإنكليزية الأمريكية. حتى محمد بنيس الجالس بجانب شاعر أصلع الرأس أبيض اللحية هادئ القسمات كان «يترغل»، هو أيضاً، بالإنكليزية، مع أن لغته الثانية فرنسية. كان بنيس قد وصل قبلنا بليلة عن طريق روما، وأصبح واحداً من هذا الرهط البوهيمي العجيب، فكدنا لا نعرفه.

VI

لم يطل الوقت حتى علمت أن القسم الأكبر من المدعوين أمريكيون. غير أنهم أمريكيون غريبو الأطوار، لمعظمهم لحى وشعور طويلة، يرتدون ثياباً أكثر غرابة من لحاهم وشعورهم مطلقة السراح. مرحون وصاخبون وحميمون. لقد

بدوا كأنهم طالعون مباشرة من صخب الستينيات. عرفت بعد ذلك أن بعضهم ينتمي إلى «جيل البيت» وبعضهم الآخر قريب، زمنياً وفنياً، من هذا الجيل الذي لعله أن يكون الأكثر شهرة، عالمياً، في سلسلة الأجيال والحركات الأدبية والفنية بعد السورياليين. إنهم جيل ألن غينسبرغ، تشارلز بوكوفسكي، لورنس فيرلنغيتي، جاك كرواك، وغيرهم.

سنأكل ونشرب و«نتبين» تحت غمرٍ من تفجرات الضحك و«الهيصة» الأمريكية منظميّ المهرجان (رافايلا مارزانو وسيرجيو لاقولي) وهما زوجان سبق أن نظما أكثر من مهرجان شعري ويشرفان على دار نشر تدعى «مالتي ميديا». كان سيرجيو ورافايلا ضائعين وسط صخب الشعراء الأمريكيين الذين فرضوا حضورهم الصداقي الثقيل على المكان وتصرفوا كأنهم أصحاب البيت. فهم الذين هبوا لملاقاتنا وتعريفنا إلى أنفسهم والآخرين.. لا سيرجيو وزوجته!

بعد أن امتلأت البطون بنوعين، في الأقل، من المعكرونة الإيطالية المطهية «على أصولها»، ودارت الرؤوس بابنة الكرمة الأمالفية، انطلق ركبنا في الشوارع الضيقة التي تصادت فيها الضحكات الصاخبة. بدت المدينة الصغيرة الطالعة بأجساد أهلها والمصطافين فيها من البحر تحت رحمتنا. فبيننا شعراء

يزن بعضهم ١٢٠ كيلوغراماً على الأقل!

يظن الشعراء، دائماً، أنهم مركز العالم.

لكن للعالم، على ما يبدو، مراكز أخرى.

فحتى هذه البلدة الصغيرة التي انتشر ملصق مهرجاننا الشعري في جميع أرجائها، كان لها ما تفعله غير أن تحبس أنفاسها بانتظار الشعراء الفاتحين!

كانت «أمالفي» تصنع، هي أيضاً، شعريتها الخاصة: هبوب نسيم البحر، صفحة المتوسط الزرقاء مثل تعويذة عين الحسود، البيوت المطلة باسترخاء أهليٍّ على البحر، الأجساد الفتية الموعودة بمطارحات الأشواق لا تزال في ثياب البحر، عقود الليمون والفلفل الأحمر المعلقة أمام محال الخضر والفاكهة، الشوارع الصغيرة المرصوفة بحجارة بحجم الكف، الحنيات والأقواس التي مرت من تحتها القرون، أسماء القديسين والأبطال وتماثيلهم، الألفة وطيبة الأهلين التي تكسر الصورة السياحية المؤطرة للمكان.. إلخ إلخ.

إن لم تكن هذه شعرية أيضاً فما الشعر إذاً؟

إنها شعرية الواقع والطبيعة لا شعرية الكلمات، وكان لها أربابها ومتلقوها وسادرون في أنحائها ومنغمورن فيها. ليست الكلمات أرض الشعر الوحيدة. هناك أرض أخرى، بل قل

أولى، للشعر. ولعل الكلمات لا تفعل شيئاً سوى محاكاتها. ألم يكن هذا هو أصل الفن؟

VII

ليست المؤثرات العربية القديمة في معمار كاتدرائية «أمالفي»، وبعض معالمها السياحية، هي الشيء الوحيد الذي يُذكِّر بالعرب.. سكان الضفة الأخرى من هذا البحر المشترك (... أو تعبير لا يحضرني، الآن، اسم منشئه: البيت المشترك) بل إن المدينة تفخر، وهي تعدد أمجادها أنها تمكنت من دحر «الساراسيين» مرتين، مرة في عام ٩٢٠ م عندما كانوا يعدون العدة لغزو روما، ومرة في عام ١٥٤٤. الهزيمة الأخيرة، تحولت ذكراها عيداً دينياً أصبح مع مرور الأيام كرنفالاً سنوياً حلّ موعده قبل أيام من مجيئنا.

يرد ذكر هؤلاء «الساراسيين» والهزيمة التي ألحقتها بهم «أمالفي» في الكتيبات السياحية التي تجدها في الفنادق أو عند محال الهدايات والتذكارات، وإذا سألت من يتحدث الإنكليزية في هذه المحال (.. وهم، في الواقع، قلة قليلة) عن كثرة المرافق التي تحمل اسم «القديس أندريا» ستعرف أنه حامي المدينة وملاكها الحارس، وأنه هو الذي أنقذ «أمالفي»

من قبضة «الساراسيين» في غزوتهم الأخيرة لها. كثيرة هي المرافق المسماة باسم «القديس أندريا» ولكن أشهرها (غير الكاتدرائية المكرسة له أيضاً) النبع الذي يتوسط «بيازا دل دومو» التي تتوسط، بدورها، الحي التجاري للبلدة .. وكل من يمر بالساحة يغريه الماء، خصوصاً في ظهيرات الصيف الحامية، الذي يتدفق من ثديي تمثال رخامي لفتاة أو من قربة رجل عجوز.. بينما «القديس أندريا» شفيع البلدة البحرية، يشخص بهالة رأسه النورانية، جهة البحر الذي حملت رياحه، ذات يوم، سفن «الساراسيين» الغزاة.

«الساراسيون» الغامضون حتى اللحظة (بالنسبة لي على الأقل) موجودون في هواء المدينة ومائها!

يا لهؤلاء «الساراسيين» الذي يسرون، على نحو غير مُفكَّر فيه، في عصب المدينة، يقبعون كذكرى مزعجة في خلفيتها!

من يكون هؤلاء «الساراسيون» الذين هزمتهم أمالفي «ملكة» البحر الأبيض المتوسط بهمّة قديسها أندريا؟

إنهم العرب المسلمون!

لم أجد في المصادر العربية التي تؤرخ للغزوات على إيطاليا ذكراً للهجوم على «أمالفي» ولا في عهد أية دولة وقع. وإن كان حدث ذلك، على الأغلب، في عهد الدولة الفاطمية. دعونا نتذكر

أن وجود هؤلاء «الساراسيين» (العرب) في إيطاليا بدأ قبل ذلك بكثير. فالمصادر العربية ترجع أول وجود عربي في صقلية إلى العام ٧٢٨م، لكن ذلك لم يؤمن وجوداً مستقراً إلا بعد عدة غزوات تتابعت في عهدي «الأغالبة» و«الفاطميين». ويبدو أن أول قاعدة مهمة للعرب في إيطاليا كانت في «باليرمو» التي يسميها الإخباريون العرب «بلرم»، فمن هذه المدينة انطلقت معظم الغزوات اللاحقة حتى وصلت إلى روما وفينيسيا.

ولعل الأقدار وحدها هي التي حالت دون احتلال «الساراسيين» لروما عاصمة الإمبراطورية الرومانية الآفلة، وقلب العالم الذي لم يكن يكف عن النبض. فإحدى الروايات التاريخية تقول إن العرب تمكنوا من إنزال فيالقهم في مرفأ المدينة لكنهم لم يتمكنوا من اختراق أسوارها الحصينة فاكتفوا «بنهب» كنوز كاتدرائيات القديس بطرس والفاتيكان والقديس بولص التي تقع خارج الأسوار، ويقال إنهم عبثوا أيضاً بقبور البابوات، ولكن ذلك لم يفت في عضد هم، فبعد ثلاث سنين حملت إحدى الليالي العاصفة أسطولهم إلى مرفأ «أوسيتا» التابع لروما، لكن الأسطول الإيطالي بـ «التحالف» مع عاصفة بحرية هوجاء تمكن من دحر الأسطول العربي.. وانتهت بذلك آخر محاولة عربية لاحتلال روما. ويبدو أن رسام

عصر النهضة العظيم رفائيل استلهم تلك المعركة في رسم إحدى لوحاته. لكن «الساراسيين»، مع ذلك، كانوا يحومون في الجوار. فقد حكموا أقاليم إيطاليا الجنوبية لنحو مئتي عام. ولم تكن «أمالفي» بعيدة عنهم، فهم كانوا في «كالابريا» التي سماها العرب «قلورية» وكذلك في «نابل» (نابولي) وفي «باري». والحال فإن «أمالفي» كانت، بصورة أو أخرى، في قبضة «الساراسيين».

لكن تلك دورة من دورات الزمن. ففي دورة أخرى تمكنت «أمالفي» من الانتقام من «الساراسيين» في ثاني أقدس بقعة عندهم: القدس.

فقد أنشأ التجار الأمالفيون نظام رهبنة حربياً سموه «فرسان مستشفى القديس يوحنا» نحو العام ١٠٤٨، شكل مع «فرسان المعبد» أقوى نظامي رهبنة حربيين عرفتهما فلسطين أيام الحروب الصليبية، ما لبث أن امتد تأثيرهما حتى شمل معظم بلاد الشام. كانت الأموال تتدفق من التجار الأوروبيين «المؤمنين» لدحر «الساراسيين» بعيداً عن «بيت المقدس». شهدت القدس أهوالاً بعد سقوطها بيد الصليبيين، كان اللاجئون الذين فروا من المدينة قد وصلت وفودهم الى

بغداد لحث الخليفة العباسي على تحرير القدس ولكنه كان أضعف من أن يحرك ساكناً، فشخصت العيون والأفئدة إلى أمير آخر يحكم الموصل يدعى عماد الدين زنكي الذي شكل تحركه بداية الهجوم المضاد لإخراج الصليبيين من بلاد الشام وصولاً إلى القدس. قُتل عماد الدين غيلةً قبل أن يبلغ مراده فخلفه ابنه الأمير نور الدين الذي لم يكن، على ما يبدو، أقل منه شجاعة ولا رغبة في مواصلة الطريق. لكن القدس ستنتظر أميراً لم يكن نجمه قد سطع بعد يدعى صلاح الدين، الذي كان أحد قادة نور الدين. فهو الذي سيكتب له أن يعيد فتح بيت المقدس، بعد أن يدور الزمن دورة أخرى، ويعود الذين جاءوا لكي يحرروا «قبر المسيح» من وراء البحر إلى بلادهم. يقال إن معظم «فرسان المستشفى» من أبناء أمالفي، مثلهم مثل سائر الصليبيين، عاد إلى بلاده الأصلية بعد سقوط «مملكة أورشليم اللاتينية» (١٠٩٩-١١٤٣). لكنهم لم يعودوا فقراء كما ينبغي للرهبان أن يكونوا. فقد تمكنوا، أثناء إقامتهم في فلسطين وبلاد الشام، من إنشاء أديرة، وإقطاعات، وبناء بلدات في بلادهم الأولى. وليس مستبعداً أن يكون النهوض الذي شهدته هذه البلدة البحرية عائداً إلى «جهادهم» في المشرق.

VIII

عندما سمعت اسم هؤلاء القوم من بائع في محل للهدايا ظننت أن الأمر يتعلق بأحد الأقوام الأوروبية الغازية كالنورمانديين أو الفايكنغ، رغم أن إيقاع الاسم وخصوصاً مقطعه الأول (سارا) يبدو شرقياً، ولم أعرف معناه إلاّ عندما عدت إلى لندن وبحثت عنه في أكثر من قاموس وموسوعة لأجد أنه أحد الأسماء التي كان يطلقها الأوروبيون على العرب، أو المسلمين، في أواخر أيام الإمبراطورية الرومانية وصولاً للعصور الوسطى.

ليس للاسم علاقة بـ «سارا» كما تخيلت أول وهلة، فلو كان الأمر كذلك، لعنى وخصَّ «أبناء عمومتنا» اليهود أكثر منا، فنحن أبناء «ضرتها» لكن للاسم، على ما يبدو، إحالة على «الشرق» كما يرجح أحد المعاجم الإنكليزية، أما كيف؟ فإليكم الولادات المتكررة والتجليات المختلفة لهذا الاسم ذي الرنين الشتائمي:

ففي معجم «كولينز» الإنكليزي يمكن تعقب المعاني التالية له: فهو يعني أحد أفراد القبائل العربية الرحل، السورية خصوصاً، التي كانت تغير على حدود الإمبراطورية الرومانية في تلك البلاد، وصار يعني الاسم في الحروب الصليبية أي

عربي أو مسلم.

يرجع المعجم أصل الكلمة الى الفرنسية القديمة «ساراسيان» التي جاءت من اللاتينية المتأخرة «ساراسينوس» والتي أخذتها، بدورها، من اليونانية المتأخرة «ساراكينوس» التي يرجح المعجم أنها جاءت من الكلمة العربية شرق Sharq.

لكن معجماً إنكليزياً آخر يعطي معاني ودلالات أوسع لهذه الكلمة أكدت إحساسي بطابعها الشتائمي، الهجائي، فإلى ما ورد في المعجم السابق يربط معجم The New Sharter مختصر أكسفورد الجديد هذه الكلمة بكلمات أخرى مثل: Heathen أو Pagan اللتين تعنيان، عموماً، الشخص الذي لا يعرف الأديان السماوية أو الكافر أو غير المتحضر.. ويمكن لكلمة «ساراسين» أن تعني البربري أيضاً!

لكن «الساراسيين» عندما غزوا «أمالفي» مرتين لم يكونوا بدواً رحلاً يغيرون على أطراف الإمبراطورية الرومانية ويثيرون هلع الحاميات أو التجمعات المعزولة في التخوم بل أصبحوا، بعد أن دارت دورة الزمن «الخلدونية»، أصحاب إمبراطورية هزمت الإمبراطوريتين الكبيرتين يومذاك: الرومانية والفارسية وحلت محلهما. أخذت منهما ما أخذت واختطت لنفسها طريقاً آخر.

والغريب في الأمر أن الكتيبات السياحية عن «أمالفي» تذكر العرب والمسلمين باسمين مختلفين. فعندما تتحدث عن شوكة «أمالفي» البحرية وقوة أسطولها في العصور الوسطى ونزعتها الدائمة للحرية والاستقلال التي غالباً ما جعلتها مركزاً لمنطقتها يرد اسم «الساراسيين» وهزيمتهم مرتين في فترتين متباعدتين، ولكنها عندما تتحدث عن المؤثرات الأجنبية في معالمها العمرانية يرد اسم العرب!

كأن الغزو، حتى وإن حدث في القرن السادس عشر، ظل منحصراً في اسمهم كـ«ساراسيين» بينما انفرد اسمهم كـ«عرب» بالمؤثرات الحضارية!

وهذا أفضل، على كل حال، من أن يظلوا «ساراسيين» طوال الوقت!

ولكن هل لكلمة «عرب» في الغرب، الآن، وقع أفضل من كلمة «ساراسيين»؟

أغلب الظن أنهم لا يستحقون حتى أن يكونوا «ساراسيين»!

فـ «الساراسيون» كانوا، على الأقل، يغيرون أما العرب، اليوم، فيغار عليهم.

IX

كان الفندق أفضل بكثير مما بدا في اللحظة الأولى، خصوصاً جانبه المطل على البحر. كان يكفي أن أغادر غرفتي ذات الأباجور الخشبي الكبير، التي تطل على جرف فوقه طريق مسورة تؤدي إلى بضعة بيوت في إحدى قمم الجبل، وانتقل إلى شرفة صغيرة في الجهة الأخرى أرضها مبلطة بالأزرق النيلي، تنتصب في أركانها أصص الزهور والنباتات المعرشة حتى أكون أمام البحر. انتقال من البني والترابي والعروق الحجرية التي تتخلل تربة الجرف إلى الأزرق الفيروزي.

الطابع البيتي للفندق، خصوصاً شرفاته، يعطي انطباعاً بعلاقة مختلفة مع المكان، تتعدى علاقة السائح العابرة به، فكأنك هنا لتقيم، لتمكث، لا لتعبر دون أن تترك وراءك أثراً أو تحمل معك أثراً.

وليس هذا من خصائص الفندق بل من خصائص البيت. كأن الفندق، مهما كان مجهزاً بكل وسائل الراحة، فهو مصمم على أساس العبور. وينطوي على شيء يذكرك بالمغادرة حتى وأنت تحل فيه. ولم يكن «فندقنا» من هذا النوع.

خطر لي في صبيحة اليوم الثاني لوصولي إلى «أمالفي»

وأنا أنحني على الشبك الحديدي للشرفة، تاركاً لكياني كله أن يتشرب تفاصيل المشهد: ذبذباته، أشعة شمسه الصباحية، زرقة بحره، هواءه الخفيف، أن هذه اللحظة شظية متطايرة من الأبد اخترقت جسدي. هُيِّئ لي أن هذه اللحظة المشحونة بهذه الطاقة الاستثنائية يمكن أن تكون من اللحظات الخارقة التي يشعر المرء، معها وفيها، أنه لم يعد بينه وبين محيطه حاجز. بأنه جزء مما يرى ويسمع ويشم ويحس. خطر لي أيضاً، أنه من الممكن أن تكون هذه اللحظة من اللحظات النادرة التي تمنح لنا نحن البشر، أحياناً، دون أن نفرقها عن اللحظات العادية القابلة للتكرار. لحظات مثل هذه تأتي دون تخطيط. دون موعد. المحظوظ، كفاية، هو الذي يكون جاهزاً، جسداً وروحاً، لامتصاصها حتى الثمالة. أزعم أنني عرفت هذه اللحظة وأنا أنحني على شبك الشرفة الحديدي. هُيّئ لي أنها دامت دهراً. وهلة شعرت أن الفارق بيني وبين محيطي قد امّحى. أصبحت جزءاً منه، جزءاً من الطبيعة وأشيائها.

أهذا قريب من لحظات التجلي الصوفية؟ لم يكن الأمر كشفاً. لم أر أكثر مما هو موجود. لم تنفتح لي «طاقة القدر»، لم يُستجب لأدعية وأمنيات مستحيلة. بل رأيت ما هو موجود وأصبحت جزءاً منه. أظن أن الأمر يتعلق بالتوافق النادر بيننا وبين محيطنا، إن لم يكن بيننا وبين أنفسنا. كان مشهد

البحر من إحدى شرفات الفندق جميلاً، ساحراً ولكنه لم يكن خارقاً. الخارق هو تلك اللحظة الشبيهة بالإلهام التي تهيأت لي وجعلتني أصبح بكياني كله جزءاً من قصيدة الطبيعة التي تستعصي على الوصف.

انتهى الأمر إلى أنني أحببت غرفتي رغم أنها لم تكن تطل على البحر. لولا سريرها العريض المهيأ لجسدين لظننت، من فرط تقشفها، أنها غرفة في دير، صومعة. لم يكن ذلك ليزعجني. كانت الغرفة تتوافر على خزانة خشبية صغيرة، طاولة إلى جانب السرير عليها مصباح كهربائي ومنضدة للكتابة. وعندما كنت أفتح درفتي الأباجور الخشبيتين الكبيرتين، تصبح جزءاً من محيطها. المشهد الريفي المتقشف كان يسهم، هو أيضاً، في صنع السلام البسيط الذي شعرت به فيها. كان ذلك، على الأغلب، بسبب تشابهات مع مناظر مركوزة في الذاكرة ردتني إلى الطفولة.

هل الطفولة ملجأ؟ أهي فردوس مفقود؟ يمضي المرء عمره كله في محاولة استعادته رغم أنها قد لا تكون سعيدة بالضرورة؟ أتساءل عن ذلك الكنه الغامض الذي يسمى الطفولة، وأنا أرى العين تألف والنفس تهفو إلى كل ما يُذكِّرُ بها أو يحيل إلى ما يشبهها رغم بساطته، عاديته، بل ربما قسوته أحياناً.

لم يكن الجرف صخرياً تماماً. كانت هناك نباتات تتشبث، على نحو عجيب، بالبقاء. نباتات وأشجار برية من بينها تينة صغيرة لم يزرعها أحد. رمت الريح، أو أيدي الناس، بذرتها دون قصدٍ هنا وشبّت بقوة النماء العجيبة. لم تكن هناك كثافة للأشجار كما هو الحال في بريطانيا. أنا ابن التقشف والقلة والفراغات يروقني ذلك.

ألذلك ترتاح عيني إلى الأشياء القليلة، الفراغات، اللون الترابي، خشخشة الجفاف؟ ربما.

كان يمكن للصاعدين، أو النازلين، من البيوت التي في قمة الجبل أن يروني في الصباح ممدداً على سريري أتطلع إلى المشهد الذي يمنحه لي شباك غرفتي العريض دون أن أغادر السرير.

يبدو أنني لم أنتبه، للوهلة الأولى، إلى اسم الفندق جيداً ولا إلى شعاره، إلاّ عندما أردت أن أكتب على أوراقه الموجودة داخل محفظة كرتونية تحمل صوراً للفندق والموقع الذي يطل منه على البحر فرأيت شعاره: البوصلة.

لم يكن اسم الفندق هو الوحيد الذي يحمل هذا الاسم أو يحيل إليه في «أمالفي»، بل ثمة تمثال برونزي ينتصب في ساحة المقهى التي اعتدنا أن نلتقي فيها بعد كل جولة لنا في المدينة

الصغيرة وتقع في «بيازا فلافيو جيويا»، مكرس، هو أيضاً، لذكرى «مخترع» البوصلة. التمثال البرونزي الذي يصور رجلاً يرتدي ملابس العصور الوسطى ويحمل في يده آلته العجيبة ومكتوب على قاعدته التالي: فيافو جيويا، مخترع البوصلة!

ولكن اسم هذا المخترع المنقوش، بكل ثقة، على الحجر ليس مؤكداً في سجلات التاريخ، بل ثمة من يقول إنه لم يوجد، فعلياً، إلاّ في الأسطورة الأمالفية التي نسجتها الذاكرة الشعبية.

ولكن، مع ذلك، تأبى المفارقة إلاّ أن تلتصق بهذا «المخترع»: أولاً، تحيط بتمثال «جيويا» أشجار نخيل يصعب على المرء أن يطرد من ذاكرته ظلالها العربية، وثانياً: نزعم نحن العرب أننا أول من اخترع «البوصلة»، (مع أن مراجع تاريخية عديدة ترجع أصلها إلى الصين وليس إلى العرب أو الأوروبيين) ثم إن الاسم العربي لهذه الآلة، التي أحدثت ثورة في المواصلات البحرية، هو نفسه الذي يستخدمه الإيطاليون: البوصلة.

X

لم يكن الشخص العجوز هادئ القسمات ذو القامة المعتدلة الذي رأيته بجانب محمد بنيس عندما أوصلنا «بيترو» إلى المطعم سوى الشاعر الأمريكي لورنس فيرلنغيتي، «عراب»

وناشر الجيل الشعري المشاكس المعروف باسم «البيت». أعترف أنني لم أكن أتوقع أن أرى شعراء مهمين في مهرجان «أمالفي». كنت أظن أن الأمر يتعلق بمهرجان جهوي صغير مثل كثير من الأنشطة الشعرية التي تقام في مدن أوروبية بعيدة عن المراكز الثقافية وتستضيف كتاباً وشعراء مغمورين.

وقد ظننت أن الشعراء الأمريكيين الذين طغى صخبهم على أسمائهم التي قدموها لي هم شعراء ثانويون لا يعرفهم أحد في المشهد الشعري الأمريكي، وأن ثمة من خدع منظمي المهرجان بهم! فلم يكن بينهم أحد من الأسماء القليلة التي أعرفها من الشعر الأمريكي، لذلك لم أعرف من هم هؤلاء الأمريكيون الصاخبون إلاّ عندما عدت ليلاً إلى الفندق وتصفحت «البروشور» الخاص بالمهرجان وكان اسماً واحداً، على الأقل، معروفاً لي: هو لورنس فيرلنغيتي.

ليس فيرلنغيتي من شعراء وكتاب «جيل البيت» Beat Genration المعروفين في العالم العربي. هناك أسماء أكثر شهرة اختصرت هذا الجيل أمثال: ألن غينسبرغ، وليم بوروز، غريغوري كورسو (الذي كان متوقعاً حضوره ولكن معاناته مرحلة متقدمة من السرطان حالت دون ذلك، وما لبث أن توفي بعد وقت قصير)، جاك كيرواك، وإن كان ألن غينسبرغ

هو الاسم الذي يقفز إلى الذهن مباشرة عندما يذكر هذا الجيل.

أدين بمعرفتي لإسم فيرلنغتي إلى مجلة «فراديس» التي كان يصدرها الشاعر العراقي عبد القادر الجنابي في باريس، فقد نشرت، في أحد أعدادها، محوراً حول قصيدة النثر العربية من خلال استفتاء شارك فيه عدد من الشعراء العرب وكنت أحدهم.

استهلت «فراديس» عددها هذا بترجمة بيان قصيدة للورنس فيرلنغيتي حول نثرية الشعر الحديث، يقول فيه:

إن معظم الشعر الحديث نثر،
مثل هذه القصيدة،
وأنا أتصفح أنطولوجيا ضخمة من الشعر المعاصر
و«الصوت العظيم في داخلنا»
غالباً ما يصدي فينا بصوت النثر
بطوبوغرافيا الشعر.
هذا لا يعني أنه نثري
هذا لا يعني أنه يفتقد العمق
هذا لا يعني أنه ميت أو يحتضر
أو أنه ليس فاتناً أو جميلاً
أو أنه ليس مكتوباً جيداً

أو أنه ليس فطناً،

إنه مليء بالحياة

مكتوب جيداً، مكتوبٌ بشكل جميل

نثرٌ فاتنٌ حيٌّ يقف من دون عكازات الترقين

نثر يكون تركيبه من الوضوح بحيث يمكن كتابته على الصفحة كلها وفي أشكال مفتوحة (...)

كانت هذه أول مرة أقرأ فيها شيئاً لفيرلنغيتي إلى أن جاء مهرجان «أمالفي» هذا.

قد يكون الهدوء الذي يطبع قسمات وحركات هذا الشاعر الأمريكي ذي الأصل الإيطالي عائداً إلى كبر سنه، فهو من مواليد ١٩١٩ وقد يكون (وهذا ما وقر عندي لحظتها) نوعاً من السكينة الداخلية.

أيد التغير الكبير الذي طرأ على شخصية فيرلنغيتي شاعر ومصور ورحالة أمريكي بوهيمي الهيئة لكنه لطيف المعشر من المشاركين في المهرجان يدعى أيرا كوهين. قال لي إن فيرلينغيتي أفضل، اليوم، بكثير مما كان عليه من قبل.

ففي اليوم التالي لوصولي وكنا نستعد للأمسية الشعرية الثانية سألت أيرا كوهين، الذي وجدت أواصر صلة تجمعنا

به منها أنه من «أبناء عمومتنا» اليهود وأقام فترة في طنجة عرف فيها محمد شكري وبول بولز، سألته أن يقدمني إلى لورنس فيرلنغيتي. فقال إن الأمر لا يحتاج إلى تقديم. اذهب وتحدث إليه.

كانت لفيرلنغيتي قراءة شعرية ذلك المساء. كان يجلس في ركن قصي من قاعة الكنيسة التي احتضنت القراءات الشعرية وبيده كتاب وأوراق يقلبها. بدا لي أنه يهيئ نفسه للقراءة. ذهبت إليه مقتحماً عليه منتبذه هذا وقدمت له نفسي. فرحب بي. قلت له إنني قرأت له نصاً عن «قصيدة النثر» ترجمته مجلة عربية تصدر في باريس. فقال: آه... لعلك تقصد نصي «الشعر الحديث نثر.. لكنه يقول الكثير». فقلت له بالضبط، ولكن أصدقاءنا الذين أعدوا ذلك العدد من المجلة أدخلوه في إطار المنافحة عن «قصيدة النثر»، أو نثرية القصيدة عموماً .. بل لعل نصك كان بيان هذه المجلة، من غير أن تقصد، فهو الذي يتصدر محورها الخاص بقصيدة النثر. لاحظت أنه اهتم بالأمر فقلت له إذا رغبت بالحصول على نسخة من هذه المجلة أستطيع أن أرسلها إليك. فقال إنه يود أن يراها. سألني ماذا أفعل غير كتابة الشعر فقلت له إنني أعمل محرراً ثقافياً لصحيفة عربية تصدر في لندن، فطلب عنواني ليرسل

إلي نسخة من إصدارات داره «سيتي لايتس» التي انطلق من منشوراتها شعراء وكتاب «جيل البيت» وسماها على اسم فيلم شارلي شابلن الشهير: أضواء المدينة.

كانت بيد فيرلنغيتي قصيدة مكتوبة على الكمبيوتر لا يفتأ يقلّبها وكتاب شعري لم أتبين عنوانه. رغم الهدوء، إن لم أقل البرود، الذي يطبع وجهه إلاّ أن حركة يديه وهو يقلب الأوراق، ويمررها مع الكتاب من يد إلى أخرى، وشت بشيء من التوتر الداخلي. أنا الذي لم يفلح، قط، في التغلب على التوتر الذي يسبق قراءة الشعر ويمهد لها عزوت هذه الحركة إلى «استحقاق» القراءة الشعرية، لا إلى كبر سنه وارتعاش يديه. قلت له وأنا أشير إلى الأوراق التي بيده: يبدو أنك ستقرأ قصيدة جديدة. فقال: أجل. إنها محاولة في وصف الشعر وتعريفه. قلت له: أودّ، إن لم يكن لديك مانع، أن أحصل على نسخة منها. فقال لي: سأعطيها لك بعد انتهاء الأمسية.

لكنني لم أحصل على نسخة بعد القراءة. اكتشف فيرلنغيتي أنه لا يملك نسخة غيرها وكان عليه أن يغادر في الصباح التالي إلى روما لقراءة شعرية هناك ولم يكن ممكناً استنساخها في «أمالفي» الصغيرة التي لم نجد فيها محلاً مشرعاً، بعد انتهاء الأمسية الشعرية في نحو الحادية عشرة ليلاً، سوى مطاعمها

وحاناتها.

لكنني أحببت القصيدة التي كانت بمثابة تعريفات مختصرة للشعر، ومقاربته بما هو، أحياناً، من غير مادته.

قد لا يكون فيرلنغيتي أفضل شعراء «جيل البيت». الشعراء الأمريكيون الآخرون المشاركون معنا في المهرجان يقولون ذلك، ولكنهم يقرون أنه الشاعر الذي رعى هذا الجيل وأطلق أعماله من خلال منشوراته، وأسهم في التحول الذي عرفه الشعر الأمريكي في تلك الفترة، حيث اقتربت القصيدة من «نبض الشارع» وكادت أن تتماهى معه واقترنت بفنون شعبية كانت مقصاة، هي أيضاً، من «المشهد الرسمي» مثل موسيقا الجاز، فصار الشاعر يكتب ويغني ويمثّل شعره. وإذا كانت أعمال فيرلنغيتي الأولى، كما لاحظت ذلك فيما بعد، هي تعليقات على أحداث العالم، واحتجاج على غطرسة القوة واحتقارها حياة البشر، وتتخذ أكثر الصيغ الشعرية بساطة ومباشرة، فإن في أعماله الأخيرة نزعة نحو استبطان الواقعة أو الحدث اليومي وربطهما بطريقة غير مباشرة بسؤال الوجود. هذا، على الأقل، ما بدا في قصيدته عن ألن غينسبرغ التي قرأها في الأمسية بصوت هادئ ولكنه سرى كتيار كهربي بين الحضور.

لا تطيق قصيدة فيرلنغتي العاطفة الصريحة ولا الانفعال الحاد، شأنها في ذلك شأن قصائد شعراء «البيت»، الذين مالوا إلى السخرية والهجاء وإلى ما هو ملموس (كونكريت)، أكثر من ميلهم إلى ما هو تجريدي أو ميتافيزيقي.

لكن الشعر الحقيقي، حتى وهو يخوض في خضم «الملموس» واليومي، يظل ثمة ما يشده إلى تجريد ما. يظل يتفلت نحو تجريد ما، ليس بالضرورة نحو المطلق، ولكن إلى ما يجعل هذه «اللحظة الملموسة» ترتقي درجة فوق حمولتها الواقعية الكثيفة.

فهل هذا هو تأويلي الخاص لقصيدة فيرلنغيتي عن غينسبرغ؟

قد يكون الأمر كذلك فعلاً!

هنا، على كل حال، ترجمة أولية قمت بها حال عودتي إلى لندن:

ألن غينسبرغ يموت!

ألن غينسبرغ يموت!
إنها في كل الصحف

في أخبار المساء
الشاعر العظيم يموت
لكن صوته لن يموت.
صوته في الأرض،
في منهاتن السفلى،
في سريره،
إنه يموت
ولا شيء يمكن فعله
حيال ذلك،
إنه يموت الموت الذي يموته الجميع
إنه يموت موت الشاعر
بيده هاتف
يكلم الجميع من سريره في منهاتن
السفلى إلى أنحاء العالم
في وقت متأخر من الليل،
الهاتف يرنُّ
أنا «ألن»،
الصوت يقول
«ألن غينسبرغ يتكلم»

كم من المرات سمعوها
عبر السنوات العظيمة
لم يكن محتاجاً ليقول «غينسبرغ»
في كل أنحاء العالم
في عالم الشعراء،
شابٌ بلحية سوداء
يقف على الشاطئ الصخري،
وطيور البحر تصرخ
الأمواج تتكسر عليه الآن
وطيور البحر تصرخ في الواجهة البحرية لسان فرانسيسكو
هناك رياح قوية
قبعاتٌ بيض هائلةٌ تسوطُ الأمبركاديرو
ألن على الهاتف
صوته في الأمواج:
أقرأ شعراً يونانياً،
هناك «ألن» واحدٌ فقط،
أريد أن أخبرك.. يقول،
يخبرهم ما الذي يجري
ما الذي يثقله

الموت ذلك العاشق القاتم ينيخ عليه
صوته ينتشر «بالستالايت»
فوق الأرض
فوق بحر اليابان
حيث وقف مرة عارياً بيده رمحٌ
مثل «نبتون» شاب،
فيه بحر
وخيول تبكي
خيول أخيل
تبكي فيه
هناك بجانب البحر
في سان فرانسيسكو
حيث الأمواج تبكي
تصنع صوتاً صافراً
صوتاً متنبئاً
«ألن»
تهمس
«ألن».

XI

لم يكن وجود الشعراء الأمريكيين في مهرجان أمالفي مصادفة. لم يجتمعوا هكذا دون اتفاق. فقد كانوا يشاركون في «جولة شعرية» لمنشورات «سيتي لايتس» التي يشرف عليها فيرلنغيتي في سان فرنسيسكو حيث يقيم. فقبل «أمالفي» قرأوا شعراً في هولندا، وغير مدينة إيطالية. لكن جولتهم الإيطالية ليست بعيدة، تماماً، عن جذورهم. فاثنان، على الأقل، من المشاركين في الجولة يتحدران من أصول إيطالية: فيرلنغيتي نفسه الذي قال لي إن والده هاجر إلى نيويورك من «لورمبارديا» وجون جورنو الذي يعد من «جيل البيت» المتأخر وسبق أن مثل فيلماً مع آندي ورهول. لم يقرأ هذان الشاعران نصوصهما بالإنكليزية فحسب بل والإيطالية أيضاً. لجون جورنو ضحكة تشبه ضحكة ممثلي السينمائي المفضل روبرت دي نيرو. قلت لجورنو ذلك. فضحك مرة أخرى، حتى كادت غمازتاه أن تتماهيا بغمازتي دي نيرو تماماً. لكن ليست ضحكة جورنو التي تشبه ضحكة دي نيرو (فهما، على كل حال من «ليتل إيتالي» في نيويورك) هي التي أثارت انتباهي إليه ولكن قراءته الشعرية المتفجرة التي بدا بها شخصاً آخر غير ذلك الذي كان يأكل معنا على الطاولة نفسها ، ويمشي في

الشوارع ذاتها ونتبادل الضحكات التي لم تعد عفوية تماماً منذ أن أبلغته أن له ضحكة تشبه ضحكة دي نيرو. فما إن صعد جورنو إلى المنصة وأخذ يقرأ مرةً من الذاكرة ومرة من أوراق بين يديه حتى تحوّل إلى شخص آخر: صوته، حركات يديه، وقفته. أهدى هو، أيضاً، قصيدة لغينسبرغ كما فعل معظم الشعراء الأمريكيين، لكنه تميز عن الجميع بلغة مباشرة، حادة. إحدى قصائده كانت هجاء ساخراً وحاداً لما سماه «الأخلاق البرجوازية المزيفة». قد يكون ذلك بسبب «مثليته». كان صديقه معه. كل شعراء الغرب «المثليين» لديهم، تقريباً، هذا الموقف من «النفاق البرجوازي».

من بين حسناته الكثيرة، كان لمهرجان «أمالفي» حسنة أساسية. فقد أكد لي أن قراءة الشعر وتقديمه للجمهور هما عمل بحد ذاته. رأيتُ من «يمثل» شعره، أو يقدم «استعراضاً شعرياً» من قبل، في مهرجان «تروار ريفير»في «كيبك» الذي حضرته قبل عام. لكن ذلك كان تمريناً أو عمل هواة. هنا، في «أمالفي» كنت أمام أساتذة في هذا المجال. فواحد مثل جون جورنو، الذي يقرأ كأنه يمثل، كأنه شخص آخر، كأن روحاً أخرى حلت فيه، مشهور في أمريكا بكونه أحد رواد هذا الاتجاه.

غادر فيرلنغيتي في اليوم التالي لقراءته الشعرية إلى

روما، ولم يعد إلى «أمالفي» ولكنه أخبرني على العشاء عندما تحدثنا، عرضاً، عن السياسة الأمريكية في الشرق الأوسط أنه رسم أثناء حرب الخليج لوحة تصور جنرالاً أمريكياً يسأل في الهاتف جنوده في «أرض المعركة»: هل بغداد تحترق؟! سألني فيرلنغيتي إن كان سؤال الجنرال الأمريكي يذكرني بشيء آخر؟ فقلت له: ليس على وجه التعيين. فقال إنه السؤال نفسه الذي سأله هتلر، بلهفة، لجنرالاته، عندما كانت طائراته تقصف العاصمة الفرنسية: هل باريس تحترق؟!

عندما عدت إلى لندن دخلت موقع فيرلنغيتي على الإنترنت. وجدت مقالات ومعلومات كثيرة عنه. لكن الذي لفت نظري هو التالي: فعندما سألني إن كانت لي أعمال مترجمة إلى الانكليزية أجبته: هناك مختارات لي مترجمة إلى الفرنسية. سألته، لحظتها، إن كان يعرف الفرنسية، فقال لي بما يوحي أن معرفته بها ليست قوية: أعرفها، فأمي فرنسية الأصل. ولكن المعلومات الموجودة في «موقعه» تشير إلى أنه نال شهادة الدكتوراه في الشعر من «السوربون»!

XII

كانت كاتدرائية «أمالفي»، هي آخر موقع نراه قبل أن ننطلق إلى الرصيف البحري الذي تغادر منه عبّارات تربط

بلدات ومدن هذا الساحل الايطالي بعضها بعضاً. فقد قررنا أن نعود إلى «ساليرنو» عن طريق البحر لتتسنى لنا رؤية «وجه» أمالفي بعد أن كنا انزلقنا إليها من خاصرتها عند قدومنا.

تناولنا قهوتنا في أحد مقاهي ساحة «دومو» وكانت الكاتدرائية بدرجاتها العريضة الاثنتين والستين أمامنا مهيبة، راسخة. جاءت رافاييلا وسرجيو والفريق العامل معهما ليودعونا، ثم لحق بهما ابنهما الذي كنا رأيناه أكثر من مرة أثناء المهرجان. قالت لي رافاييلا مشيرة الى ابنها: انظر إليه ألا يبدو لك عربياً؟ كان الشاب الذي يبدو في العشرين من العمر أسمر البشرة ذا قامة نحيلة متوسطة الطول، له عثنون أسود محفوف الشارب وعينان سوداوان عميقتان. لو أنني رأيته في الأردن لظننته من قبيلة «الحويطات» أو «بني حميدة». لم يكن الشاب يشبه والدته ذات البشرة الفاتحة بل لعله أقرب إلى والده ذي البشرة المائلة إلى السمرة.

لم أكن أعلم وأنا أودع رافاييلا وسرجيو، والمجموعة التي تعمل معهما، أن الرحلة التي تستغرق، عادة، نحو ثلاث ساعات إلى لندن (ساعة من نابولي إلى ميلانو وساعتين من ميلانو إلى لندن) ستبلغ ٢٤ ساعة، وأنه كان يمكن لي أن أنام في مطار ميلانو، بعد أن تحللت شركة «أليطاليا» من أية مسؤولية تجاهنا لأن الإضراب قام به الملاحظون الجويون

وليس موظفي أليطاليا!! لولا وجود منزل فوزي الدليمي، رفيق الرحلة، في ميلانو لنمت في المطار. وفي «نابولي» التي أتيح لي أن أراها أكثر في طريق العودة كانت تحذيرات رفيقنا «بيترو» صارمة: احذروا النشالين!

ركبنا العبارة المنطلقة من «أمالفي» إلى «ساليرنو» ورافقنا في هذه الرحلة التي استغرقت نحو نصف ساعة «بيترو» الذي كان عليه أن يقلنا بالميني باص من «ساليرنو» إلى مطار «نابولي».

كانت أديرة على قمم السلسلة الجبلية التي أقيمت في ثناياها مدينة «أمالفي» تلوح لنا ونحن نبتعد عن ميناء المدينة ولم يكن ممكناً رؤية هذه الأديرة ولا قمم الجبل من داخل المدينة.

صارت «أمالفي»، ونحن نبتعد عنها في بحر رائق الصفحة مثل «كارت بوستال».

في بلاد ماركيز
(٢٠٠٤)

72 كتاب
الإصدار «٧٢» نوفمبر ٢٠١٢

لم تكن «سيلفيا»، طالبة الحقوق في إحدى جامعات «بوغوتا»، أول كولومبية أراها، وإن كانت الأولى ذات المسحة «الهندية» الواضحة التي تقع عليها عيناي، فقبلها كانت «كاتالينا» المهجَّنة (من العنصرين الأوروبي والهندي) التي تعمل في شركة الهاتف الإسبانية في غرناطة. كنت قد أضعت رحلتي بسبب ضيق الوقت بين وصول طائرتي القادمة من لندن وإقلاع «الأيبرية» الذاهبة إلى «بوغوتا». ففي مطار مدريد اللغة الإنكليزية عملة نادرة. تسأل بالإنكليزية فيجيبونك، بطلاقة، بالإسبانية. بين سين وجيم عن البوابة التي ستغادر منها الطائرة ضاعت الرحلة. «الحق» لم يكن كله «على الإسبان». إنه خطأي أنا الذي لا يزال يعتمد، كبدوي مترحل، على السؤال بدل قراءة المكتوب على الشاشات المخصصة لإقلاع الطائرات ووصولها.

لم تنته «ساعة النحس» عند هذا الحد. فوق ذلك، فقدت جواز سفري. ففيما كنت أدور، كحجر الرحى، بين مكتب وآخر بحثاً عن حجز جديد لي على أول طائرة مغادرة إلى «بوغوتا» أضعت جواز السفر. فقدان «الجواز» لأناس مثلنا قادمين من العالم العربي هو الرعب بعينه رغم أن جواز سفري بريطاني. لكن رعب الوثائق والأختام ووزارات الداخلية لا يفارق العربي

حتى لو عاش دهراً في أعرق ديمقراطيات العالم. إنه رعب يسري في الدم ولا مجال، على ما يبدو، للتخلص من كرياته الحمراء، لكنَّ الصدفة، تلك المتلكئة العنيدة، تكفلَّت بشخصي المرتبك الذي تجرد، فجأة، من أهم إنجاز حققه في بلاد الغربة: جواز السفر. ففيما كنت أجلس في أحد مقاهي المطار أدخِّن بقنوط، مفكراً بطريقة تعيدني إلى لندن، رأيت موظفة ترتدي زي الخطوط الأيبرية تتقدم، بخطى خريفها الذهبي، في اتجاهي وبجانبها فتاة تبدو عليها الملامح «اللاتينية». قالت لي سيدة الخطوط الأيبرية: ألست السيد فلان الفلاني؟ فقلت: نعم. فقالت: لقد تركت جواز سفرك على «الكاونتر»! لم تكن هناك هدية أثمن، في تلك اللحظة، من ذلك الجواز أحمر اللون الذي ناولتني إياه، بلا استثارة من أيِّ نوع، سيدة الخطوط الأيبرية المكللة بهالة خريفٍ ذهبيٍّ.

فهمت منها أنني لست الوحيد الذي لم يلحق بالطائرة، فهذه الفتاة، (وأشارت إليها) لم تفعل أيضاً. تدبرت سيدة الخطوط الأيبرية حجزاً لنا على الطائرة الكولومبية التي ستقلع بعد ساعتين. كان عليَّ أن أتصل بمنظمي المهرجان في «مديين» لأخبرهم بالتغير الذي طرأ على رحلتي كي يتسنى لهم استقبالي في مطار «بوغوتا». «ماراثون» آخر من استحالة الفهم بين

شخص هلع يتكلم بالإنكليزية من مطار مدريد وسكرتيرة، مطمئنة إلى تفاصيل يومها العادي، تتكلم الإسبانية تعمل في إدارة المهرجان. اختفت، في الأثناء، الفتاة ذات الملامح اللاتينية. في مطارات، كخلايا النحل، يكفي شرود بسيط كي يختفي العابرون. شربت أكثر من فنجان قهوة ودخنت عدداً من السجائر على شرف جواز سفري المستعاد من وهدة الرعب. لكنَّ الفتاة ذات الملامح اللاتينية التي اختفت في مطار مدريد ستظهر ثانية في الكرسي المجاور لي على متن رحلة لطائرة «ألبيانكا» الكولومبية التي ستعبر بنا (كحاقلة استوائية ريفية، غير أنها قادرة، بمعجزة، على التحليق نحو ثلاثين ألف قدم في الجو، أعلى بما لا يقاس من أبقار ماركيز!) مياهاً لا حدَّ لاتساعها. تلك كانت «كاتالينا» المهجنة، كمسمار خَيلٍ، من العنصرين الأوروبي والهندي. أمضينا نحو إحدى عشرة ساعة في كرسيين صغيرين متجاورين في واحد من أطول نهاراتي (رحلة مع شمس لا أعرف متى غربت) فوق لجَّة عبرها قبل خمسة قرون كريستوفر كولومبوس في رحلته الشهيرة إلى «الهند»!

من «مدريد» إلى «بوغوتا» أكلنا وشربنا وشاهدنا أكثر من فيلم وقرأنا ما نحمله معنا من صحف وتحدثنا وملنا من الحديث (أو بالأحرى يئسنا) ونمنا وذهبنا إلى الحمام كذا مرة

ولم تنته هذه الرحلة الدهرية. كنت تعجبت من تسيّد الشمس للسمت في رحلة قمت بها قبل سنين إلى كندا، إنه الاتجاه نفسه، تقريباً، إلى نصف الكرة الشمالي، ولكن مع إضافة أربع ساعات طيران أخرى. فبعد إحدى عشرة ساعة طيران من مدريد، التي غادرتها ظهراً، وصلت إلى «بوغوتا» مع الغروب!

لم تكن «كاتالينا» تعرف سوى مفردات معدودة من الإنكليزية (أكثر على أية حال مما أعرف من الإسبانية) فكان حديثنا مزيجاً عجيباً من الإنكليزية والإسبانية والإشارات التي عولت عليها كثيراً في خلق الشكل الممكن (إن لم يكن الوحيد) للتواصل ليس مع «كاتالينا» وحدها، بل مع معظم الذين سألتقيهم في رحلتي إلى كولومبيا، حيث سأعود إلى «اللغة الأولى»، أو إلى ما قبل اللغة.

عرفت أن «كاتالينا» تعمل في غرناطة لأنها اسم علم.. وتعمل في شركة للهاتف لأنها رفعت يدها اليمنى إلى أذنها وأفردت الإبهام والأصبع الصغير وضمت الأصابع الثلاثة الوسطى. إنها الإشارة نفسها التي نستخدمها عندما يطلب أحدنا من الآخر أن يتصل به هاتفياً. ما هو بديهي في العلاقات بين البشر بدا لي ضرباً من الاكتشاف في هذه الرحلة.. كأنني كنت، في هذه الرحلة، أكتشف البارود! فكيف لم يخطر لي أنه من دون اللغة نرتد إلى عجمتنا الأولى، إلى صورة اللحم والدم.

إلى نوع من البهيمية. اللغة سحر. مفتاح كل قصد ومسعى. من خلالها تدخل إلى قلوب الناس وعقولهم.. وليس، فقط، كي تأمن شرهم، على حد تعبير القول العربي. وباللغة، أيضاً، يتحقق وجودك الإنساني بمعناه العميق: أي أنك تخرج من حالة العُجمة (أو البُكمة) إلى الإفصاح. لم أتبين هذه البداهة المفروغ منها إلا في رحلتي الأولى إلى أمريكا اللاتينية التي جعلت حصيلتي من إنكليزية كنت أعتقد أنها كافية ليتدبر المرء أمره في أي مكان في العالم، كعملة أهل الكهف. شيء غير ذي جدوى. شيء غير قابل للصرف أو التداول.

ولكن مع كل هذا العسر في التواصل، فقد تركت رحلتي إلى كولومبيا أثراً في نفسي يبزُّ، ربما، أية رحلة قمت بها إلى مكان آخر. فهذا عالم لم آلفه من قبل: جغرافياً ومناخاً وبشراً وثقافة وعادات. عالم جديد، كلياً، بالنسبة لي. حتى القراءات التي تأخذنا إلى أقرب الأماكن وأبعدها لم تقدم لي عنها تصوراً يمكن التعويل عليه، أستثني من ذلك، بطبيعة الحال، أعمال ماركيز (وقلة غيره من الكولومبيين) التي صورت جانباً من الحياة في تلك الأمكنة البعيدة عنا تماماً.

***

ما إن انطفأت شارة ربط الأحزمة حتى عمَّ الطائرة هرج ومرج. فجأة راحت الأحزمة تطقطق. حركة فك الأحزمة كانت سريعة ومتزامنة بحيث بدت تطبيقاً لتعليمات السلامة التي أداهـا، بملل ظاهر، عدد من المضيفات والمضيفين الكولومبيين قبل إقلاع الطائرة. للحظة تحولت الطائرة إلى ما يشبه السوق المرتجلة. فهناك من ذهب إلى الحمام. هناك من فتح أمتعته وأخرج طعاماً أو شراباً. هناك من قام يتمشى في الممرات الضيقة. هناك من ذهب لزيارة صديق أو قريب في كرسي آخر. الإسبانية تتراقص، بسرعة، على الشفاه. فلامنكو أندلسية من السينات والثاءات. الألسن تتحرك أكثر مما تفعل أية لغة أوروبية أخرى. لكنَّ «كاتالينا» لم تتحرك من الكرسي. ليس لديها قريب أو صديق على متن الرحلة. إنها ليست من «بوغوتا». ذكرت لي اسم مكان لم أحفظه. استمر الهرج والمرج ساعة أو أكثر. جيء بالمشروبات الخفيفة. عاد المنتشرون في ممرات الطائرة إلى مقاعدهم. لكنهم عاودوا الانتشار مرة أخرى بعد وجبة الطعام التي لم أعرف مما تتكون. بعد ساعة أو ساعتين دب بهم اليأس والملل والتعب فعادوا إلى مقاعدهم. إثنان فقط ظلا واقفين بالقرب منا يتبادلان حديثاً لم ينقطع. أحدهما خلع قميصه. كان يرتدي تحته فانيلا بيضاء، فبدت

عضلاته المفتولة. ظلا يشربان البيرة. لا بدَّ أن تلك العلب التي لم تنفد كانت من مخزونهما الشخصي. قرأت. نصت. صحوت. نمت مرة أخرى. ولكن الرجلين الواقفين بقيا، كما لو كانا في باص ريفي، يتبادلان الحديث ويكرعان البيرة من تلك العلب التي لا تنفد.

***

كانت «سيلفيا» التي استقبلتني في مطار بوغوتا، ذي الإجراءات الأمنية والجمركية الصارمة، تعرف شيئاً من الإنكليزية. استغربتُ إجراءات التفتيش التي خضعنا لها في مطار مدينة ينبغي أن يخضع إلى مثلها المغادرون منه، وليس العكس. فماذا يمكن أن تجلب إلى كولومبيا؟ مخدرات مثلاً؟ سألني ضابط الجوازات عن سبب مجيئي إلى كولومبيا فقلت إنني شاعر مدعو إلى مهرجان «مديين». كان واضحاً أنه يعرف اسم المهرجان. أو لعله قابل مدعوين مثلي، فضيوف هذا المهرجان، كما سألاحظ لاحقاً، بالعشرات. شعراء بالجملة.

بدا لي أن «سيلفيا»، السمراء، نحيفة العود، غاضبة. فقد اضطرت لانتظاري أكثر من أربع ساعات. قلت لها إنني أضعت طائرتي وفقدت جواز سفري ولكنها لم تتسامح معي كثيراً، خصوصاً، عندما طلبت منها أن أشرب فنجان قهوة وأدخن

سيجارة قبل أن ننطلق إلى الفندق الذي سأقيم فيه ليلتين. لم تكن تدخن لذلك لم تفهم حاجة مدخن مثلي إلى سيجارة بعد انقطاع إجباري عن التدخين لنحو إحدى عشرة ساعة. قالت تشرب القهوة وتدخن عندما نصل. لكني أصريت على موقفي. جلبت لي، على مضض، قهوة في كاسة كرتونية. كانت قهوة رديئة. هذا بلد القهوة أليس كذلك؟ لكن «سيلفيا» لم تهتم لملاحظتي. تريد أن نصل بأقصى سرعة إلى فندقي الذي يقع في وسط المدينة. عرفت لاحقاً لِمَ هي مستعجلة. فهي ليست من سكان «بوغوتا». وعليها أن تعود إلى بلدتها أو ضاحيتها البعيدة بعد أن تنجز مهمتها. يبدو أن الليل مخيف في «بوغوتا»، أو في المكان الذي ستعود إليه. الأحوال الأمنية في هذا البلد ليست على ما يرام لذلك يتحرك الناس بحذر.

كان الفندق متواضعاً جداً. لكن رفقة الشباب الذين «تسلموني» من «سيلفيا» بددت جهامة المكان ويؤسه. بعد وقت قصير من وصولي رنَّ هاتف غرفتي. كانت المتحدثة تتكلم الإنكليزية. قالت إنها «أندريا». شاعرة تتعاون مع المهرجان، وهي في انتظاري في بهو الفندق. إذا كانت «كاتالينا» مهجنة من العرقين الأوروبي والهندي، و«سيلفيا» هندية، فإن «أندريا» أوروبية الملامح تماماً. لكنَّ أوروبيتها

لا تشبه أوروبية الإنكليز ولا الفرنسيين ولا الإسبان. فروحها المرحة، الودود، المباشرة تعطي انطباعاً بأوروبية يتخللها مزاج «لاتيني». سألحظ هذه الأوروبية (أتحدث، هنا، عن الملامح فقط) الكولومبية أثناء رحلتي ولن تذكرني بأوروبية القارة العجوز. لم أر «كاتالينا» بعد أن هبطنا من الطائرة. اختفت بعد وصولنا إلى قاعة مطار «بوغوتا» مثلما فعلت في مدريد. لن أراها، على الأغلب، مرة ثانية. فلن تتدبر الصدفة العنيدة ظهورها، بملامحها المهجَّنة وخصرها الدقيق، في الكرسي المجاور لي في رحلة العودة. فكَّرت، للحظة، بالوجوه التي نراها مرة واحدة في حياتنا. فكَّرت بشيء آخر. هل بقي شيء في ذاكرتها من رحلتنا المتلعثمة إحدى عشرة ساعة على ارتفاع نحو ثلاثين ألف قدم في ذلك القفص الاستوائي المسمَّى «ألبيانكا»؟

فاجأتني «أندريا» بما لم أتوقع: قراءة بعد ساعتين في جامعة بوغوتا! لم تكن هذه القراءة مدرجة في البرنامج. كيف يمكن للمرء أن يقرأ شعراً بعد كل هذا السفر؟ بعد هذا اليوم الذي يتضاعف في الزمن والجغرافيا والمناخ والوجوه؟ قالت «أندريا» إن الأمر بسيط. اذهب وخذ «دشاً» سريعاً، وأحضر كتابك معك! كان مع «أندريا» شاب آخر يدعى «ريكاردو»

يعرف الإنكليزية أيضاً، فقد أقام، فترة من الوقت، في أمريكا، بلد أحلام الشباب الكولومبيين، وربما كثيرين غيرهم في العالم الثالث. «ريكاردو» الذي سيأخذني، لاحقاً، إلى الجامعة ويطوف بي في بعض معالم «بوغوتا» المفخخة بالرهبة، هو راوي حكايات شعبية. حكواتي يعني. يحافظ، كما فهمت منه، على هذا الإرث الثقافي الشفوي المهدد بالاندثار. غسلت وجهي وأحضرت القصائد التي سأقرأها (المترجمة إلى الإسبانية) وذهبت مع «ريكاردو» ذي السحنة الهندية الخالصة. كانت «أندريا» قد سبقتنا لتهيئة الأمسية، لكننا لم نذهب، مباشرة، إلى الجامعة بل لشرب شيء ما. هكذا تعين علي أن ألحظ المكان الذي حللت فيه بعد تموج الصور والوجوه واللغات في رأسي في ذلك اليوم المضاعف.

***

صدمتني «بوغوتا» بطقسها المتجهم. نحن في فصل الصيف. لكنَّ جهامة الطقس. برودته غير المتوقعة بالنسبة لي، أنا الذي أعدَّ نفسه لطقس استوائي، جعلتاني أظن أنني في بلد آخر غير كولومبيا. ليست هذه كولومبيا التي قرأتها في الروايات. مرجعي، بالطبع، ماركيز. لم أكن أعرف أن كولومبيا هي كولومبيات على صعيد الطقس والتنوع المناخي

والجغرافي. فهذا صيف في مكان آخر، لكن ليس في «بوغوتا». ففصل الجفاف هنا يبدأ من كانون الأول (ديسمبر) وينتهي في آذار (مارس).

هذه مدينة مبنية على حافة جبل. أو على منسبط من الجبل. أو في الجبل. لم أعرف بالضبط لأن الجبال كانت تحيط بنا. السماء منخفضة. الغيوم التي تعبرها كثيفة، بين حين وآخر، هي سبب هذا الإحساس على الأغلب. الشوارع التي مررنا بها تشبه شوارع مدن العالم العربي اليوم غير أن سحن الناس مختلفة. ليست مختلفة كثيراً، لأن بين المارين في شوارع بوغوتا من يشبهنا أيضاً. خلاصة القول إن هناك مزيجاً غريباً ومربكاً بين أوروبية كولونيالية وبؤس تمكن ملاحظته من تجوال سريع. للمرة الأولى، ربما، وجدت نفسي غير مكترث بسؤال مرافقي (لم يكن كذلك بالمعنى الرسمي) عن المناطق التي نمرُّ بها. كان هناك ما يشبه الحياد الغريب حيال الأشياء قد انتابني. وهذا يحدث لي بين حين وآخر ولا أجد له تفسيراً مقنعاً. شيء يشبه البلادة، أو عدم الاكتراث.

***

سمعت عن عشق الكولومبيين للشعر. كان علي أن أختبر ذلك في أمسية الجامعة. لحسن الحظ لم أكن وحيداً في تلك

المهمة الكئيبة: القراءة أمام جمهور. بعض شعراء المهرجان القادمين من خارج كولومبيا شاركوا في حمل العبء. كانت القاعة التي سنقرأ فيها مكتظة بالكامل. كان هناك من يقف في الخارج أيضاً. كلهم طلاب. شبان وشابات جاؤوا ليسمعوا الشعر. جمهور كبير. صمت مخيم. لم نسمع هاتفاً محمولاً يرن. لم يدخل الى القاعة أو يخرج منها شخص بعد بدء القراءات. من مدخل القاعة يمكنك أن تعرف ميول الطلاب السياسية. شعارات ضد أمريكا. صور ورسومات لتشي غيفارا. ذكرني ذلك، على الفور، ببيروت السبعينيات.

كانت «أندريا» هي من قدم الشعراء وأدار الأمسية. إنها شاعرة معروفة، على ما يبدو، في هذا الوسط. كما أنها، أيضاً، على صغر سنها، أستاذة في الجامعة. لـ «أندريا» مجموعة شعرية واحدة. قدمت لي منها نسخة (بالإسبانية بالطبع). كتبت في الإهداء كلمات جعلتني أعيد النظر في عينيَّ رغم معرفتي بطابعها المجامل جداً: إلى صاحب أجمل عينين رأيتهما!! الإطراء ليس سيئاً. نحتاج إليه أحياناً، شرط أن لا نصدقه كثيراً. المشكلة أنني صدقته لبعض الوقت.

في تلك الأمسية الجامعية أراد الطلاب أن يسمعوا شعراً ولكن أن يلحظوا موقفاً كذلك. هذا الجو الشبابي اليساري

جعلني أقرأ قصيدة لي بعنوان «قصيدة مؤجلة إلى نيويورك»، التي ترجمها إلى الإسبانية الكاتب المغربي المقيم في إسبانيا أحمد العبدلاوي، وتتحدث عن شاعر يريد أن يكتب قصيدة ضد نيويورك بوصفها رمز الرأسمالية الأمريكية المستعبدة (اقتفاء لديوان لوركا «شاعر في نيويورك» الذي وضع الأساس الأول لشتيمة المدينة الرأسمالية العملاقة فبنى عليه الشعراء اللاحقون هجائياتهم الجاهزة) ولكنه يحجم عن كتابة قصيدته الموعودة بعد أن تفجرت الأبراج وطار الناس في السماء بلا أجنحة. لم يفاجئني الحماس الذي قوبلت به القصيدة. فمن مدخل القاعة كان الموقف لصالحي. قراءة انتهازية؟ ربما.

ربورتاجاً طويلاً في قالب روائي عن هذا الموضوع بالذات.

ليس الاختطاف مقصوراً على اليسار المسلح وحده، بل تمارسه كذلك الميليشيات اليمينية المساندة للنظام. وقد فهمت من بعض الكولومبيين الذين التقيتهم سواء في «بوغوتا» أم في «مديين» أن الأمر لا يتعلق بطلب فدية مالية ولكن بمبادلة مخطوفين لهذه الجهة عند تلك.

نحن نعرف أن إسرائيل ومصر هما الدولتان اللتان تتلقيان، على التوالي، أكبر قسط من المساعدات الأمريكية الخارجية، ولكننا نادراً ما تساءلنا (أو اهتممنا) عمن تليهما على هذا الصعيد. إنها كولومبيا التي تتلقى نحو ١,٣ مليار دولار سنوياً.

فهذه دولة مركزية في أمريكا اللاتينية كانت تسمى ذات يوم، بهمة القائد الشهير لحركة التحرير في القارة اللاتينية سيمون بوليفار، «كولومبيا الكبرى» وتضم إليها فنزويلا، الإكوادور وبنما. لكن التدخلات الاستعمارية، الأمريكية الشمالية، خصوصاً، والحروب الأهلية، أدت إلى تفتت هذا الكيان العملاق إلى ثلاث بلدان هي: كولومبيا، فنزويلا، الإكوادور، أما بنما فقد دفعت الولايات المتحدة للحكومة الكولومبية ٢٥ مليون دولار تعويضاً عن خسارتها لها.

لا يقتصر اهتمام واشنطن، تاريخياً، بكولومبيا في كون الأخيرة تتمتع بموقع مركزي في القارة اللاتينية، ولكن أيضاً لأنها لا تبعد عن ميامي سوى نحو ثلاث ساعات بالطائرة. إنها، بمعنى من المعاني، ساحة خلفية لها.

هناك موضوعان أساسيان يشغلان بال واشنطن حيال كولومبيا: النفوذ القوي لفصائل اليسار الماركسي المسلح في البلاد، والمخدرات، لكن بعد انتهاء الحرب الباردة وسقوط «المعسكر الاشتراكي» تغيرت أولويات الولايات المتحدة، فلم يعد اليسار الماركسي يقلقها كثيراً، فتصدرت المخدرات واجهة الاهتمام الأمريكي.

لكن من الصعب، على ما يبدو، الفصل، اليوم، بين فصائل اليسار المسلح وتجارة المخدرات، خصوصاً أن واشنطن وبوغوتا تجدان صلة قوية بين الأمرين.

لم يكن هذا رأي «خوان» الشاب الكولومبي، الهندي الملامح، الذي رافقني في رحلة إلى مدينة «سانتافي» وأقام نحو سبع سنين في الولايات المتحدة الأمريكية، حيث قال إن الحكومة الكولومبية وواشنطن تحاولان أن تربطا النشاط العسكري اليساري في كولومبيا بتجارة المخدرات.

فقلت له: ولكن لا دخان من دون نار. فأجاب: كل ما في

الأمر أن هذه القوى «تجبي» ضريبة على الكوكايين الذي يزرع ويصنَّع في الأراضي الخاضعة لها، وهذا أحد مصادر تمويلها.. ثم أضاف: ولكن هذا لم يحصل إلا في السنين العشر الأخيرة عندما أخذت الحكومة، بمساعدة عسكرية مباشرة من أمريكا، في تضييق الخناق على الحركات اليسارية.

الطريف في الأمر، حسب «خوان»، أن هذه الحركات تمنع تعاطي المخدرات في الأماكن التي تسيطر عليها رغم فرضها ضريبة على تجارتها! جعلني دفاع «خوان» عن قوى اليسار المسلح أميل إلى تعاطفه معها إن لم يكن انتماءه إليها. لكن مثل هذا الانتماء خطير. قلما يجاهر به المدنيون الذي يعملون في مؤسسات حكومية أو حتى غير حكومية. قوى اليسار المسلح خط أحمر في نظر المؤسسة الرسمية وشرائح لا بأس بها في المجتمع المدني الكولومبي. يمكنك أن تكون يسارياً في كولومبيا ولكن ليس من جماعة «الفارك».

قلت لـ «خوان»: ولكن أليس الاتجار بالمخدرات، أو حتى فرض ضريبة عليها،عملاً يتنافى مع أساس الفكرة اليسارية وأخلاقيات النضال؟ أجاب «نعم». لم أكن أتوقع، طبعاً، إجابة أخرى. فمن الصعب تبرير هذا الموقف الذي يبدو غير أخلاقي لقوى تناضل ضد الإمبريالة وتطالب بالعدالة الاجتماعية.

كان في لبنان (وأفغانستان أيضاً) من يرى في زراعة الحشيشة أو الأفيون وتصديرهما إلى الغرب نوعاً من النضال ضد الإمبريالية.. أو تقويضها من الداخل!

رأيت «الماريوانا» تلفُ، علناً، من قبل المثقفين الكولومبيين حتى في الفندق الذي كنا ننزل فيه، ولما أبديت استغرابي لصديقي الشاعر رافائيل باتينو الذي التقيته في كندا قبل بضع سنين، قال إن استخدام الأعشاب المخدرة (وليس الكوكايين، المصنع من شجرة الكوكا) هو جزء من التقاليد الثقافية للسكان الأصليين. إنه نوع من فلكلور. استمرار لطقس اجتماعي وربما ديني قديم.

نتذكر أن العقيد أورليانو بوينديا في رواية ماركيز «مائة عام من العزلة»، كان من تيار الأحرار المشبع بالروح الغاريبالدية الذي قاتل في واحدة من الحروب الأهلية التي اجتاحت كولومبيا، لعلها أن تكون «حرب الألف يوم» (١٨٩٩-١٩٠٢).

نتذكر أن جد ماركيز كان عقيداً في تلك الحرب التي خلفت وراءها نحو ١٠٠ ألف قتيل، ولكنه، على الأغلب، ليس أساس شخصية «أورليانو بوينديا» بل لعل أصل هذه الشخصية الروائية، على ما يقول صديق ماركيز ورفيق خطواته الأولى

الكاتب بيلينو مندوزا، هو الجنرال رافائيل ألبرتي القائد الأسطوري لتلك الحرب. الصراع بين اليمين واليسار، أو المحافظين والأحرار، له جذور تاريخية في كولومبيا. لكن التطور الأبرز في تحول هذا الصراع إلى حرب أهلية مسلحة حصل في الأربعينيات من القرن الماضي في ظل نظام دكتاتوري عسكري.

ويبدو أن أطرافاً راديكالية من حزب الأحرار والحزب الشيوعي غادرت اللعبة السياسية الحزبية في كولومبيا لتأسيس تنظيم يدعى (Farc) يسيطر اليوم على مناطق واسعة من الريف الكولومبي ويبلغ عديده نحو ١٧٥٠٠ مسلح، تشكل فيه النساء نسبة ٣٠ بالمائة.

في مقابل هذا التنظيم الأكبر في قوى اليسار المسلح (هناك تنظيم آخر أقل حجماً وأهمية منه يدعى (ELN) متأثر بالتجربة الكوبية) فإن قوى اليمين المتطرف، مدعومة من النظام، تمتلك ميليشيا عسكرية وتخوض حرباً هي أيضاً ولكن.. ضد اليسار. هذا ما يقوله «خوان» الذي يلمّ، على ما يبدو، بتاريخ اليسار الكولومبي ونزاعاته وانشقاقاته. واضح أن الطرفين يمارسان الاغتيال حيال رموزهما أو المتعاطفين معهما في معظم أنحاء كولومبيا.

لـ «مديين»، هذه المدينة الإقليمية الكبيرة، سمعة سيئة في الخارج لم تكن خافية على منظمي المهرجان الشعري الذي يعتبر الأكبر في أمريكا اللاتينية.. فحاولوا أن يخففوا وقعها علينا ولكن دون أن «يغامروا» بأرواح ضيوفهم، لذلك طلبوا إلينا على نحو واضح وصريح، أكثر وضوحاً وصراحة مما حصل معي في «بوغوتا»، أن لا نغادر الفندق دون علمهم..

كنا فعلاً نريد الخروج، إن لم يكن من أجل أن نرى هذه المدينة ذات «السمعة السيئة»، فعلى الأقل من أجل الطعام. فالأكل الذي يقدمه الفندق رغم إشراف «صديقة» الشعراء العرب الفاتنة «باولا» على مطبخ الفندق الذي نقيم فيه، كان غريباً، بل عديم المذاق (مع أن أحداً منا لم يجرؤ على أن يخبر باولا بذلك)، إلى درجة أن «بهارات قاسم» الشهيرة التي يحرص قاسم حداد على التزود بها (وتزويد الآخرين، كذلك) في كل سفرة له خارج البحرين لم تتمكن، بكل طاقتها السحرية، من جعل هذا الطعام «الماسخ» قابلاً للأكل.

الطعام الكولومبي، أو على نحو أكثر حذراً، طعام هذا الفندق، أبطل كل مفعول مأمول لـ «بهارات قاسم»، بما في ذلك أشدها تأثيراً: «الأجار الهندي»!

***

قررنا، في يوم بلغ فيه الجوع بنا كل مبلغ، أن نخرج بحثاً عن مطعم يمكن أن «نفهمه»، كانت المهمة الأصعب من مغامرتنا بحثاً عن الطعام في مدينة بدت لنا، من فرط ما سمعنا من أخبار سيئة عنها، كحقل ألغام، أن نتمكن من انتشال سيف الرحبي من استرخائه الأبدي في إحدى «كنبايات» الفندق.

ولكن بهمّة عبداللطيف اللعبي وإغراءات الطعام المنشود الذي لابد أن يكون موجوداً في مكان ما في المدينة، تخلى سيف عن «كنبايته» الأثيرة ومضى معنا على مضض.

كانت المدينة تعج بالحركة والحياة.. لم تبد خطرة من خلال مسحنا السياحي السريع لواجهتها.. فما دام هناك بشر يتحركون وحياة تدب في كل شيء فهذا يعني أن الخطر افتراضي.. لكن كثرة عناصر الشرطة والجيش والأمن الخاص الذين تكاد تراهم في كل مكان تقريباً أكدت لنا أن الخطر حقيقي وإلا لما كان هذا العدد الكبير من رجال الشرطة والجيش منتشراً في كل مكان حيوي في المدينة.

الخطر حقيقي.. لكن الجوع كان حقيقياً فعلاً، وبسبب هذا الجوع بالذات تمكنا، بعد أن قام شاب من العاملين في المهرجان بمرافقتنا، من التجول في المدينة ورؤية الساحة الشهيرة التي تنتصب فيها تماثيل «بوتيرو» غريبة

الأشكال والأحجام، خصوصاً، النساء السمينات إلى درجة كاريكاتورية.. سمنة لم نر شيئاً يشبهها في نساء «مديين» التي لا أدري من وصفها منا، نحن الشعراء العرب، بالمنحوتات الحقيقية. منحوتات معاكسة لبوتيرو. أجساد ممشوقة، خصور دقيقة، أرداف مشدودة، وأكتاف يلمع، نحاسها، في الشمس.

***

الـ (Farc) القوات المسلحة الثورية الكولومبية الفصيل الرئيسي في اليسار المسلح لا تسيطر على أرض بمساحة سويسرا وتقيم عليها دولتها (جمارك، صحة، تعليم، الخ)، فقط، بل لها وجود قوي في صفوف الشباب الجامعي. وقد اختبرت قوة اليسار بين الشبان في القراءة الشعرية التي أقيمت على أحد مدارج الجامعة الوطنية في «بوغوتا».

وهؤلاء الشبان يعتبرون، على نحو مسلّم به ولا يقبل الشك أو المساءلة، أن كل عربي هو، بالضرورة، معاد للولايات المتحدة، فما أن يشمّوا، في شعرك أو كلامك، ما يشي أنك تعرّض بأمريكا حتى يعلو الهتاف والتصفيق. سيتكرر هذا المشهد في كل المدن الأخرى التي قرأت فيها.

ولكن هذا لا يعني أن كل الشباب الكولومبي متعاطف مع الـ (Farc) بل هناك، بالتأكيد من يعتبرها (جنباً إلى جنب مع

عصابات المخدرات)، سبباً في العنف المتواصل في بلادهم.. وتعويق تطورها.. والأهم عزلها عن العالم.

المتعاطفون مع اليسار المسلح لا يعبرون عن مشاعرهم علناً خشية قوى الأمن الحكومية والميليشيات اليمينية (كما هو حال «خوان») ولكنهم يصبون جام غضبهم على النظام الكولومبي وحليفته واشنطن فتعرف، بذلك، ميولهم دون أن تسأل في أي صف يقفون، بينما المعارضون لليسار المسلح لا يترددون في اعتباره آفة ينبغي اقتلاعها.

ورغم أنني كنت أتحرك في أوساط ثقافية إلا أن السياسة كانت دائماً حاضرة، ويبدو أن الكولومبيين، وربما كل شعوب أمريكا اللاتينية، مصابة مثلنا بداء السياسة. تاريخ هذه البلاد يؤكد ذلك. يسار ويمين، وحروب خاسرة تطوي حروباً أخرى، هذا يشبه الى حد ما العالم العربي: كأن لا تراكم يحدث ولا ذاكرة تتذكر وتشهد.

تذكرت أثناء أحاديثي، المشوبة بفراغات كبيرة أملاها غياب الوسيط اللغوي الناجع، مع عدد من المثقفين الكولومبيين، علاقة العالم العربي بالأفكار «التقدمية» و«الرجعية» والتجارب السياسية التي لم تفلح في قيام نظام يحقق الحد الأدنى من صبوات العرب.

بدت لي كولومبيا، وربما أمريكا اللاتينية كلها، مصابة، مثلنا أيضاً، بفقدان الذاكرة.

هذا ما قاله الممثل الشاب «موريسيو» عن كولومبيا، وقد وجدت أصل الفكرة عند ماركيز الذي قرأت له حواراً صحفياً أجراه معه صديقه سابق الذكر بيلينو مندوزا قبل نيله جائزة «نوبل» عام ١٩٨٢ ونشر في كتاب بعنوان «رائحة الجوافة» (ترجمته العربية صادرة عن دار «أزمنة» الأردنية)، حيث يقول: «إن تاريخ أمريكا اللاتينية يتشكل من مغامرات هائلة عديمة الفائدة، وسلسلة من الأحداث المأساوية الكبيرة المحكوم عليها بالنسيان مسبقاً. نحن أيضاً نعاني من داء فقدان الذاكرة. بمرور الوقت لم يعد أحد يتذكر مذبحة عمال شركة الموز قد وقعت فعلاً، كل ما يتذكرونه هو العقيد أورليانو بوينديا».

الناس تنسى الهزائم وتتذكر «الأبطال».

ماركيز ومجموعته

يبدو أن التشابه بيننا، كعرب، والأمريكيين اللاتينيين، أكثر مما اعتقدت قبل أن أقوم بهذه الرحلة. المصائر السياسية، الفساد، العسكر، التوق إلى الحرية، هذه أمور متشابهات. لكن، أيضاً، هناك تشابه لجهة تشكل المجموعات والتيارات الأدبية والتأثر بالحداثة الغربية، مع فارق أن اللغة الإسبانية تضع الذين يكتبون بها على تماس حتمي مع ما يحدث في الساحة الأوروبية على صعيد التعبير الأدبي والفكري. إنها لغة أوروبية، بينما نصدر نحن من لغة لها مدار مختلف تماماً. لها تاريخها الخاص وعالمها الذي تتحرك فيه شبه المغلق. هذا فارق كبير ينبغي أخذه في الحسبان عندما نقارن بين أدب أمريكا اللاتينية والأدب العربي. ولكن مع هذا الفارق الحاسم فإن هناك تشابهاً لجهة اعتبار «المنتج الأوروبي» (أو الأمريكي الشمالي) نوعاً من معيار. فمن هناك انطلقت الحداثة الأدبية والفنية، ومن هناك طلع نقدها أيضا، ومثلما شكلت أسماء كاليوت وسان جون بيرس وريتسوس والحركة السوريالية مرجعيات مباشرة أو غير مباشرة لحركة الحداثة الأدبية العربية فقد فعلت الأمر نفسه، تقريباً، في بلدان أمريكا اللاتينية، أما في الرواية فالأسماء الغربية الكبرى هي نفسها تقريباً: كافكا، جويس، بريست، فرجينيا وولف، فوكنر إلخ.

هكذا تذكرنا «مجموعة بارانيكا» ببدايات الكتاب والشعراء العرب لجهة التمرد الاجتماعي والهوس بالكلمات والانكباب، بما يشبه الفروض الدينية، على أدب الحداثة الغربي وملاحقة كل ما يستجد على هذا الصعيد. أسماء الكتابة الغربية الكبيرة تلمع، في سماء تلك المنطقة الاستوائية، كنجوم هادية أو معبودة، فيتلقفها شبان ريفيون لم يعرفوا حياة المدن الأوروبية بعد، ليصبح بعضهم، بدوره، نجماً يلمع في سماء الأدب العالمي.

***

في مدينة «برانكيا» التي يكللها الغبار ويسوطها الحر اللافح والرطوبة على فتحة نهر «المجدلينا».. انضم شاب نحيف ذو شعر طويل أكرت وشاربين كثين يدعى غابرييل غارسيا ماركيز إلى عصبة، ماجنة، متجاوزة حدود اللياقة التقليدية، مسكونة بحب الأدب والصعلكة. كانت المدينة المعفاة من الضرائب تستقطب القادمين إليها من داخل كولومبيا وخارجها بلا توقف تقريباً. فقد وصلت إليها، منذ أواخر القرن التاسع عشر، أفواج من المهاجرين العرب، كما احتمى بها نازيون وفاشيون فروا من إيطاليا وألمانيا بعد انتصار الحلفاء في الحرب العالمية الثانية.

يذكر ماركيز أن «مجموعة بارانيكا» تحلقت، في أواسط القرن العشرين، حول كُتُبيٍّ وناشط سياسيٍّ كتالاني يدعى «دون رامون فينياس» فرَّ من قبضة نظام فرانكو بعد هزيمة الجمهوريين في إسبانيا وحط رحاله في ميناء المدينة الكاريبية. في «رائحة الجوافة» نجد أنفسنا أمام مشهد لهؤلاء «الصعاليك» الذين يهدرون أوقاتهم، وأنفسهم، في نقاشات أدبية وجدل صاخب في مواخير أسطورية مكتظة ببنات هوى وطيور تتكلم ونباتات فاقعة الألوان. أسماء وعناوين تتناثر في أجواء النقاش: همنغواي، فوكنر، فرجينيا وولف، غراهام غرين، جيمس جويس إلخ. محور المجموعة الشابة هو العجوز «دون رامون» الذي يظهر، لاحقاً، في رائعة ماركيز «مائة عام من العزلة» باسم «الحكيم الكتالاني».

***

أعرف مبالغات ماركيز وأحبها. فيه غنائية ريفية لم تبددها الأيام ولا المدن التي تنقل بينها، ظل يحتفظ بالفضول والانبهار اللذين يميزان الريفيين حيال المدن والمتمدينين، ربما، طيلة حياته. الناشط السياسي الكتالاني الذي يبدو في سمت المعلم في أحاديث ماركيز ليس هو، على الأغلب، ذا التأثير الحاسم عليه. هناك شاب كان يكبر ماركيز بسنة واحدة، أو سنتين، نال

تعليماً في أمريكا وعاد الى مدينته ليكون «دينمو» المجموعة هو: ألفارو سيبيدا ساموديو. كانت المجموعة تضم خليطاً من الكتاب والشعراء والصحافيين والفنانين أبرزهم: ماركيز، ساموديو، جيرمان فارغاس، ألفونسو فونيميور، أليخاندرو أوبريغون، برناردو ريستريو مايا. لكن «ساموديو» كان، على ما يبدو، الأكثر تضلعاً بينهم بمستجدات الأدب في الغرب، تلك الجهة التي كانوا يتطلعون إليها بشغف. «ساموديو» العائد من دراسات في الأدب والصحافة في أمريكا يعرفهم على همنغواي. الأهم على وليام فوكنر. وينادي، من خلال علاقته مع المجموعة، وكتاباته في الصحافة المحلية، بتثوير السرد الكولومبي المحافظ في أساليبه وموضوعاته. تثوير القصة والرواية. كسر زمنها المستقيم. تفتيت التماسك السردي والحكائي. هكذا احتفى بخوليو كورتاثار في مقال كتبه عن مجموعته القصصية الأولى «بستريو» في صحيفة «الهيراليدو» عام ١٩٥١. فقد رأى فيها نموذجاً لما يجب أن يفعله السرد القصصي الكولومبي. المثال الأوضح لخروجه من عباءة السرد التقليدي روايته الوحيدة «البيت الكبير».

عندما تحدثت عن تأثير «ساموديو» على ماركيز كان في ذهني هذه الرواية تحديداً. فهي تتناول، مثل «مئة عام من

العزلة» إضراب عمال الموز الذي تحول إلى مذبحة عرفت باسم «مذبحة سانتا ماريا». ظلت ذكرى تلك الفعلة الدموية التي ارتكبتها القوات الكولومبية الحكومية لصالح «شركة الفواكه المتحدة» عالقة في ذهنه. لكن «ساموديو»، المعني بالسياسة في مقالاته في صحف «بارنكيا»، أراد أن يكتب عملاً يستبطن تلك الواقعة المريعة، يتضمنها، كجمرة، ثاوية في العمق، لا أن يؤرخ لها. وهذا ما فعل. إذ إن الجانب السيكولوجي هو الذي يطغى على رواية «البيت الكبير» (ترجمها الى العربية منذ عشرين سنة تقريباً محمد علي اليوسفي).

البيت الكبير

بـدأ «سـاموديو» نشر فصول روايته في الخمسينيات. أصدرهـا في كتاب عام ١٩٦٢. أي قبل أن ينشر ماركيز روايته «مئة عام من العزلة» بخمس سنين. الروايتان تتقاسمان واقعة إضراب عمال مزارع الموز الذي أخمد بالنار ولكن من خلال أدائين سرديين مختلفين، ففي حين تميل رواية «ساموديو» إلى البعد النفسي والاستبطان والقتامة والانضباط اللغوي والعاطفي تتخذ رواية ماركيز منحى ملحمياً مترعاً بالشعر والتدفق اللغوي. في الترجمة العربية لرواية «البيت الكبير» هناك مقدمة مكثفة بقلم ماركيز يقر فيها بفضل هذه الرواية على المنجز الروائي الحديث في أمريكا اللاتينية، وما عرف، لاحقاً، باسم «الواقعية السحرية».

يتحدث ماركيز عن «البيت الكبير» قائلاً: «رواية مستوحاة من حدث تاريخي، إضراب عمال الموز على الساحل الأطلسي الكولومبي، وهو إضراب أخمده الجيش بالرصاص.

مؤلف الرواية ألفارو سيبيدا ساموديو، كان عمره آنذاك أربعة أعوام بالضبط، وكان يعيش في مبنى خشبي كبير تشرف نوافذه الست وشرفته المزينة بأصص أزهار مغبرة، على محطة السكة الحديد التي اقترفت فيها المجزرة. رغم ذلك، لا يوجد في هذا الكتاب ميت واحد والجندي الوحيد الذي يتذكر

بأنه شكَّ رجلاً بحربة بندقيته في العتمة، لم تتلطخ بدلته العسكرية بالدم، بل بالبران»!

رغم أننا لا نقع فعلاً، كما يذكر ماركيز، إلاّ على حادثة موت واحدة يرويها أحد الجنود لرفيقه، غير أن رائحة الموت تتخلل مناخ الرواية متحالفة مع روائح التفسخ العائلي على خلفية عزلة مديدة. تذكرنا حوارات الفصل الأول من الرواية بحوارات صموئيل بيكت في مسرحية «بانتظار غودو» حيث لا تتقاطع الحوارات عند معنى معين ولا ترمي إلى استكناه شيء ظاهر. إنها أشبه بحوارات عدمية هدفها الوحيد، على ما يبدو، مضاعفة مناخات العزلة التي تقطع الأرواح البائسة كحد سكين مرهفة. إذا كانت رواية «البيت الكبير» تستند إلى حادثة حقيقية عرفتها مزارع الموز في كولومبيا، فهي لا تروي تاريخاً، كما أشرت من قبل، ولا تنقل واقعاً بالمعنى المباشر للكلمة، بل تنحو منحى التحويل الشعري للواقع، كما يذهب إلى ذلك ماركيز في وصفها ووصف أعماله. «البيت الكبير» رواية كثيفة، سوداء حزينة.. أنشودة ذاكرة متقطعة عن عزلة البشر ومصائرهم المتحللة تحت ثقل الضجر والهجران، تُقرأ مرة بعد أخرى ولا يُستنفد غموضها السحري.

***

أعمال نادراً ما كانت لها علاقة بالأدب، فنشر، في سبع سنين، ست روايات تقع في آلاف الصفحات، سرعان ما صنعت اسمه الذي لم يكن مغموراً، على الأقل، بين رفاقه الذين يعرفون موهبته.. والأهم عمق وسعة ثقافته. وهذا ما جعله القارىء الأول لكل مخطوطات أعمال ماركيز الروائية، بحسب ما قال الأخير في كلمة الاحتفال بعيد ميلاده السبعين. البعد الشعري في أعمال «موتيس»، أساسي نظراً لكونه، أصلاً، شاعراً.

فهو يصدّر روايته «عبده بشور الحالم بالسفن» بأبيات لشعراء، ولكن ليس هذا هو دليلنا على شعرية عمله السردي، فهو يقع، كله، في جهة الشعر: اللغة، المجازات، الجمل الملتفة التي تهدر على طول الرواية.

«عبده بشور»، بطل الرواية، لبناني، ولكنه ليس مثل اللبنانيين أو السوريين المهاجرين الذين يظهرون في خلفيات أعمال ماركيز كتجار صغار أو بائعين متجولين يسميهم أتراكاً حيناً و سوريين حيناً آخر، إنه لبناني من لبنان، وهذا، بحد ذاته، شيء مغاير تماماً لصورة المهاجرين العرب في الأدب الأمريكي اللاتيني.

رجل حالم. عوليسي المسعى. يطوف العالم، كله، بحثاً عن سفينة أحلامه، وكلما اقترب من تحقيق هذا الهدف يقف القدر

حائلاً. في شخصيته شيء من الدونكيشوتية (مطاردة أشباح تتراقص، طواحين هواء) وفيه الكثير من العوليسية: محاولة الوصول إلى «إيثاكا».

لكن «إيثاكا» عبده بشور ليست مكاناً تحط فيه الرحلة وتنفض وعثاء السفر وتتكلل بـ «أنوار الوطن»، بل سفينة صمم مواصفاتها في ذهنه (قل في أحلامه) وطفق يسعى إليها في موانئ باتساع العالم، أما رفيقه في هذه الأسفار التي تتخللها الأهوال، كما يجدر بالرحلة العوليسية، وتحفها مغامرات وتجارب جحيمية دانتية الطابع، فهو الشخصية المركزية في أعمال «موتيس» الروائية: ماكرول ألغافيرو، الذي لا يقل عنه دونكيشوتية أيضاً.

تفصح رواية ألفارو موتيس هذه عن معرفة عميقة بالعالم جغرافيا وثقافة، وتدهش القارىء معرفته بالعالم العربي مدناً وتاريخاً وثقافة.. والأهم موقفاً. فنادراً ما نقع على فهم للمكان والشخصية العربيين في الأدب العالمي، فهما إما سلبيان، عدوانيان، وإما «إكزوتيكيان». ليس هناك شيء من ذلك في رواية ألفارو موتيس، فهي لا تصدر، أصلاً، من مركز ثقافي.. أو حتى جغرافي، وليس لشخوصها مرجعيات إلاّ أنفسهم.. وأحلامهم الطائشة.

لا واقعية سحرية في أعمال «موتيس». لا تأثر بـ «مجموعة بارانكيا». فهو لم يكن منهم. وهذا ما يفعله جيل من الروائيين والقصاصين الجدد الذين يعتبرون أن شجرة ماركيز الباذخة حجبت الغابة. أو، على الأقل، صعَّبت مهمة من يأتي بعده. أعمالهم مسبوقة بأفق من التوقع الجاهز. وبما أنهم من كولومبيا فلا بدَّ أن يكونوا طالعين من عباءة ماركيز.. أو من موجة الواقعية السحرية. إنهم يعرفون هذا التوقع المسبق ولا يستغربونه. لكنهم مع ذلك ماضون في تقديم صورة أخرى للرواية الكولومبية. هذا ما يمكن أن يقوله كتاب من أجيال لاحقة على ماركيز مثل «جورج فرانكو» أو «أفرايم مدينا» أو «سنتياغو غامبوا». فرواية الواقعية السحرية، في نظرهم، جهوية، ريفية، وليست رواية المدينة الحديثة وصراعاتها المتشابكة. إنهم يكتبون حياتهم وخبراتهم عبر سرد مناسب لهذه الحياة وتلك الخبرات اليومية. سرد غير ملحمي، غير غنائي. غير شامل. اليومي والتفصيلي والمتعين في حياة المدينة الراهنة أبرز خصائصه. وهذا ليس بعيداً عما يفعله الروائيون العرب الذين جاؤوا بعد أعلام الرواية والقصة في الخمسينيات والسيتنيات. المثال الروائي المصري الحديث أقرب شيء إلى ذلك.

لم يصادفني ضيق بين المثقفين الكولومبيين الذين التقيتهم من ماركيز. الشعراء، على الأقل، لا مشكلة لهم معه. الروائيون والقاصون، رغم تهذيبهم في الكلام عنه، لديهم، دون شك، مشكلة.

في بلدة بابلو إسكوبار

يمكن لي أن أتذكر، طويلاً، تلك الأمسية التي أقيمت في بلدة «انفيغادو» مسقط رأس زعيم كارتيل المخدرات الشهير بابلو إسكوبار الذي قتلته الشرطة، بالتعاون مع المخابرات والجيش الأمريكيين، بعد فراره من السجن عام ١٩٩٢.

كان موقع الأمسية التي سأقرأ فيها، بمعية عدد من الشعراء الناطقين بالإسبانية، ساحة عامة يحيط بها من جهة صف من المطاعم والمقاهي ومحال البقالة ومن جهة أخرى كتدرائية البلدة.. ويبدو أن وقت القراءة ترافق مع قداس (أو صلاة) يقام في ذلك المساء.

لم أفهم، أول الأمر، لماذا كان يتعين علينا الانتظار رغم تقاطر عدد لا بأس به من الناس إلى الساحة: شابات وشبان، نساء مع أطفالهن، متشردون، أناس من سحنات مختلفة جلسوا على الأرض أو احتلوا المقاعد القليلة التي كانت في الساحة، فيما رائحة المأكولات المقلية تعبق في الجو. فهمت من أحد المنظمين أننا ننتظر انتهاء القداس. كان بإمكاننا أن نسمع التراتيل التي تتلى في الكاتدرائية.. ولما طال الوقت أكثر مما ينبغي خطر لي أن أذهب إلى الكاتدرائية التي تواجه المنبر المفترض للأمسية الشعرية. كانت الكنيسة الكبيرة ذات الزخرف الكاثوليكي المعتاد مكتظة بالمصلين. وقفت قريباً من

الباب.. رأيت أخلاطاً من الأعمار والسحنات خاشعين، ولكن ما شدني، أكثر من أي شيء آخر، هو الرجل الواقف بالقرب من أحد أعمدة الكنيسة ممسكاً بتمثال صغير للسيدة العذراء وينتحب في صمت. رجل في الستينيات من عمره ظل، طول الوقت الذي قضيته في الكنيسة، منكباً على التمثال الصغير فيما جسده النحيل يهتز. لعله الرزء، أو المرض، ما دفع ذلك الرجل إلى بكاء صامت يهتز له سائر بدنه. بكاء دامع بلا صوت. طلب واضح من السيدة العذراء أن تفعل شيئاً عاجلاً. هزني المشهد. فكرت أن الدين، بهذا المعنى، قد لا يكون «أفيوناً» حسب المقولة الماركسية الشائعة، بل لعله نوع من الرجاء في ظلمة لحظة المصيبة أو المرض. الدين وحده، كملجأ أخير، قادر، كما يبدو، على منح هذا الرجاء. يمكنني أن أتذكر «السياب»، الشيوعي السابق، وهو يسبغ على المرض هالة إلهية. كان إقراره بإلهية المرض، بامتحانه الجسد العليل والروح الشقية، يخفي حاجته إلى تدخل إلهي للبراء منه، فبما أن المرض امتحان إلهي فإن الشفاء عطية إلهية كذلك.

ما إن انتهى القداس حتى أخذ المصلون يتصافحون استعداداً للخروج. كان بالقرب مني شاب وفتاة تبدو عليها علائم الحمل، صافحاني متمتمين شيئاً بالإسبانية لم أفهمه.

تمتمت شيئاً بدوري بالعربية لم يفهماه أيضاً. خرجت إلى مكان الأمسية الشعرية. وجدت المنظمين قد فقدوا أثري. خافوا أن يكون قد وقع لي مكروه.. فنحن، بعد كل شيء، في مسقط رأس زعيم أكبر كارتيل مخدرات في العالم.

الشيء الذي لم أجد له تفسيراً هو الغياب شبه الكامل لرجال الشرطة أو الأمن الخاص الذين تراهم، عادة، مشرعين بنادقهم أمام الدوائر الحكومية والأمكنة العامة.. والأسواق التجارية.. وهذا يعني، تقريباً، في كل مكان. فهل كان هذا المكان آمناً فلا يحتاج، والحال، إلى وجود الشرطة، أم أنه خطر حتى على الشرطة أنفسهم؟ لم أعرف.. لكن عيسى مخلوف، الذي كان يقرأ، هو والشعراء العرب في أمكنة أخرى مجاورة لـ«مديين»، قال لي مازحاً: يبدو أن المنظمين تدبروا أمرهم مع «الجماعة»!

كان مدهشاً أن أرى معظم المصلين ينضمون إلى المنتظرين في الساحة العامة لسماع الشعر. أعرف أن منظمي مهرجان «مديين» ذوو مسحة يسارية، ولعلهم لهذا السبب بالذات، لا يعرفون مواعيد الصلوات، فقد تكرر مشهد قريب من ذلك في «سنتافي» البلدة التاريخية التي تعتبر أول مستوطنة كولونيالية إسبانية في كولومبيا. فلو كانوا يعرفون، أو يهتمون، لما جعلوا وقت الأمسيات الشعرية يتزامن مع القداس.

وبينما كنت أقرأ في ساحة عامة، ولكن صغيرة هذه المرة، تقابلها، أيضاً، كنيسة فإذا بالأجراس تقرع، فتوقفت عن القراءة.. وقد ذكرني هذا المشهد بالقراءات الشعرية في «بيت الشعر الأردني» و«دارة الفنون» في عمّان حيث تترافق القراءات، غالباً، مع رفع أذان صلاة المغرب!

لكن حضور الدين البارز في حياة الكولومبيين لا يمنع حضور الجسد. الدين والجسد ليسا، هنا، على طرفي نقيض، مع أن المسيحية، عموماً، الكاثوليكية، خصوصاً، ترى في الجسد خطيئة. فالطقس الحار والتقاليد الثقافية ما قبل المسيحية لمعظم السكان (هنود، أفارقة) لا تجعل من الجسد (الأنثوي) عورة ينبغي سترها أو مواراتها. فالسيقان والأذرع والبطون والنحور المكشوفة مظهر عادي لا يثير استنكاراً أو فضولاً. ويبدو أن العلاقات بين الجنسين، بل العلاقات بين الناس عموماً، لا تخضع للتوجس الذي يراه المرء في أوروبا. فالمسافة بين الناس تكاد تكون منعدمة. فهم يتلامسون ويتعانقون ويتحدثون بأعلى أصواتهم، والعاطفة التي ينبغي أن تدفن جيداً في أعماق الفرد الأوروبي واضحة، هنا... بل فاقعة. إنها مثل شمس بلادهم، مثل حرارتها، مثل ألوان طبيعتهم لا تقبل تأويلاً أو مواربة.

كان عيسى مخلوف الذي يقيم في باريس محقاً وهو يعانق صديقتنا «باولا» المشرفة على المطبخ في الفندق، قائلاً لها، بين المزح والجد، إنه يريد أن يتزود بـ«حرارة» كولومبيا لمواجهة برودة باريس. فما عساي أقول أنا الذي يقيم في لندن.. وبين «أبرد» شعوب الأرض: الإنكليز؟

أمجد ناصر

- ولد في الأردن عام ١٩٥٥ وعمل في الصحافة الأردنية قبل أن يغادر عمان إلى بيروت عام ١٩٧٧ ليعمل محرراً ثقافياً لمجلة «الهدف» ومسؤولاً عن البرامج الثقافية في إذاعة الثورة الفلسطينية قبيل الاجتياح الإسرائيلي للبنان، ثم غادر بعد حصار بيروت إلى قبرص ليعمل في الصحافة العربية هناك.
- يشرف اليوم على القسم الثقافي في صحيفة «القدس العربي» الصادرة في لندن.
- شارك في عدد كبير من المهرجانات الشعرية العربية والدولية، مثل مهرجان جرش في الأردن، ومهرجان الشعر العربي في القاهرة، ومهرجا ن لندن العالمي للشعر، ومهرجان روتـردام في هولندا، ومهرجان برلين، ومهرجان جنوا ومهرجان ميديين في كولومبيا، ومهرجان الشعر العالمي في الدار البيضاء، ومهرجان لادبري البريطاني.
- نال جائزة محمد الماغوط للشعر عام ٢٠٠٦، وجائزة ابن بطوطة لأدب الرحلة عام ٢٠٠٩.
- عمل في عضوية عدد من لجان التحكيم لجوائز أدبية وصحافية عربية ودولية منها جائزة «يوليسس» للريبورتاج الأدبي التي تمنحها مجلة «ليتر» الألمانية، وجائزة الصحافة العربية في دبي، وجائزة عبد المحسن القطان في فلسطين، وجوائز صندوق دعم الثقافة العربية في بيروت، وجائزة «بوكر» للرواية العربية.
- أصدر تسع مجموعات شعرية وثلاثة كتب في أدب الرحلة ورواية وكتاب يوميات عن حصار بيروت، كما صدرت له في القاهرة ورام الله وعمان ودمشق، أربع مختارات شعرية، إضافة إلى صدور طبعتين من أعماله الكاملة في بيروت وعمان. من بين أعماله «رعاة العزلة»، «سرَّ من رآكِ»، «مرتقى الأنفاس»، «حياة كسرد متقطع»، «تحت أكثر من سماء».
- ترجمت بعض أعماله إلى الفرنسية والألمانية والإيطالية، كما صدرت مختارات مترجمة من أعماله الشعرية إلى الإنكليزية في لندن، وستصدر دار بلومزبري ترجمة إنكليزية لروايته «حيث لا تسقط الأمطار» قريباً.

المحتويات

«أمالفي» المدينة المعلقة: الجبل ليس سهلاً	٩
في بلاد ماركيز (٢٠٠٤)	٦٧
كائنات فرناندو بوتيرو	٨١
أكثر من وجه لكولومبيا	٨٩
يسار ويمين.. ومخدرات	١٠١
ماركيز ومجموعته	١١٣
البيت الكبير	١١٩
في بلدة بابلو إسكوبار	١٢٨
أمجد ناصر - سيرة ذاتية	١٣٤

كتاب «دبي الثقافية»
سلسلة دورية تصدر عن
مجلة دبي الثقافية

١- «نجيب محفوظ.. قيصر الرواية العربية» - ١٩٩٩.

٢- «سلطان العويس.. شمس الثقافة التي لا تغيب» - ٢٠٠٠.

٣- «المبدعون» - النصوص الفائزة في مسابقة «المبدعون» - الدورة الأولى - ٢٠٠١.

٤- «نازك الملائكة.. أميرة الشعر الحديث» - ٢٠٠١.

٥- «الرنين» - المجموعة الشعرية الفائزة بالجائزة الأولى في مسابقة «الصبدعون» - الدورة الثانية - للشاعر السوري أيمن إبراهيم معروف - ٢٠٠٢.

٦- «مدارج الرحيل» - الرواية الفائزة بالجائزة الأولى في مسابقة «المبدعون» - الدورة الثانية - للروائي المصري خالد أحمد السيد - ٢٠٠٢.

٧- «غشاوة» - المجموعة القصصية الفائزة بالجائزة الأولى في مسابقة «الصبدعون» - الدورة الثانية - للقاصة الإماراتية عائشة الزعابي - ٢٠٠٢.

٨- «حمد أبو شهاب في ذاكرة الإمارات» - ٢٠٠٢.

٩- «ليالي الحصار.. أحزان عراقية» - شعر - نصوص لشعراء العراق - فبراير ٢٠٠٣.

١٠- «السماء تخبئ أجراسها» - المجموعة الشعرية الفائزة بالمركز الأول في جائزة «الصدى» للمبدعين - الدورة الثالثة - للشاعر المصري بشير رفعت - ٢٠٠٤.

١١- «تيار هواء» - المجموعة القصصية الفائزة بالمركز الأول في جائزة «الصدى» للمبدعين - الدورة الثالثة - للكاتبة المغربية حنان درقاوي - ٢٠٠٤.

١٢- «الانكسار» - الرواية الفائزة بالمركز الأول في جائزة «الصدى» للمبدعين - الدورة الثالثة - للكاتب السوري عامر الدبك - ٢٠٠٤.

١٣- «البار الأمريكي» - المجموعة القصصية الفائزة بالمركز الأول في جائزة «دبي الثقافية» للإبداع - الدورة الخامسة ٢٠٠٦/٢٠٠٧ للكاتب العراقي وارد بدر السالم.

١٤- «إلى الأبد... يوم» - الرواية الفائزة بالمركز الأول في جائزة «دبي الثقافية» للإبداع - الدورة الخامسة ٢٠٠٦/٢٠٠٧ للكاتب السوري عادل محمود.

١٥- «قمر أور» - المجموعة الشعرية الفائزة بالمركز الأول في جائزة «دبي الثقافية» للإبداع - الدورة الخامسة ٢٠٠٦/٢٠٠٧ للشاعر العراقي عامر عاصي جبار..

كائنات فرناندو بوتيرو

أول تعليمات تلقيتها من «أندريا»، وصحبها، ألاّ أخرج بمفردي من الفندق.. وإن خرجت يستحسن أن أكون برفقة أحدهم. قلت لأندريا: هل الأمر خطير الى هذا الحد؟ فقالت: هناك إشكالات أمنية قد لا تعرفها، ولا تعرف أطرافها، ويفضل أن يكون واحد منا معك. تدبير احترازي ليس إلاّ.

وفعلاً لم أخرج مرة واحدة وحدي، رغم أنني لا أختلف، شكلاً، عن كثير من الكولومبيين. فأي شخص بسحنة أوروبية، سوداء، متوسطية، قد يكون كولومبياً، ولكن الاختطاف (أو حتى السرقة، وهي شائعة في المدن الكبرى) لا يطال الأجانب وحدهم، بل الكولومبيين أنفسهم. هكذا، لم أتمكن، فعلاً، من مشاهدة الكثير من معالم بوغوتا. اقتصرت جولاتي القصيرة (بمرافقة ريكاردو أو أندريا) على مناطق محدودة، أبرزها «المتحف الوطني». رأيت بعض معالم العاصمة سريعاً (ساحة سيمون بوليفار) أو عن بعد (الدير الذي يتربع على قمة جبل وكان منجم ملح في السابق) أو سمعت عنها من أندريا وأصحابها الذين يمثلون مهرجان مديين في بوغوتا. الفوارق التي لاحظتها، من نظرة عجلى، كبيرة. غنى وفقر. نظام وفوضى. مدينة وريف. أحياء راقية وأكواخ صفيح. خضرة وتلوث. ثنائيات مدن العالم الثالث تحتشد في «بوغوتا التي

يبلغ عدد سكانها نحو سبعة ملايين نسمة.

كان المتحف الوطني قريباً من الفندق. «ريكاردو»، راوي الحكايات الشعبية، هو الذي أخذني إليه. إنه متحف غريب. شكله من الخارج يوحي بأنه لم يصمم ليكون متحفاً. قلعة ربما. هذا صحيح، فهو كان سجناً في السابق وتم تحويله إلى متحف. أي سجن للأعمال الفنية أيضاً. فكرة المتحف قائمة، أصلاً، على العزل. فالفن، في عرف مستحدثي المتحف، ليس ابن الشارع. ليس من شؤون الحياة اليومية. إنه عمل سامٍ. متعالٍ. لا يجوز بذله للعامة. هذا الفهم للفن ووظيفته غربيان على الأغلب، وهما معاكسان، تماماً، لوظيفة الفن الإسلامي التي لا تقوم على العزل والانفراد، بل على المزج والتداخل في حياة الناس وشؤون عيشهم. أي أنه فن وظيفي. الجامع، الأبنية، المنسوجات، الحلي، أدوات المنزل الخزفية إلخ .. كلها تقع في إطار الوظيفة اليومية للفن. عندما ترى المتحف الوطني الكولومبي من الخارج لا تظن أن هذا البناء الطابوقي المصمت يحوي داخله سرديات «أركيولوجية» وجمالاً فنياً مشعًّاً. منظره كئيب من النظرة الأولى، لكن عليك أن تدخل بوابته المقوسة لتعرف قصة كولومبيا وفنونها. قال لي «ريكاردو» إن متحفهم الوطني يعتبر الأقدم في القارة

الأمريكية. أنشئ في العقد الثالث من القرن التاسع عشر عندما كانت البلاد تدعى «غرناطة الجديدة». كانت هناك كولومبيا الكبرى التي حلم بها محرر أمريكا اللاتينية سيمون بوليفار ولكنها لم تصمد طويلاً تحت ذلك الاسم الحلمي.

يتكون المتحف، على ما لاحظت، من ثلاث طبقات، تنقسم بدورها إلى عدد من الصالات. تضم الطبقة الأولى عاديات ولقىً من فترات الاستيطان البشري الذي عرفته هذه البلاد وتحول سكانها الأصليين من الصيد وجمع الثمار إلى الزراعة والسيطرة النسبية على الطبيعة. هناك أدلة قوية في الطابق الثاني على قيام أشكال حضارية قبل مجيء الغزو الإسباني الذي ترافق مع سقوط غرناطة العربية وبدء «فتوحات» أمريكا. الخزف، الحليّ، الأدوات الموسيقية، التماثيل الفخارية لآلهة محلية تعطي انطباعاً بطور حضاري متسق مع الطبيعة والكون. ثم فترة الغزو الإسباني وتغيير صورة البلاد نهائياً. هناك امتزاج بين المحلي والأوروبي القادم مع حملات الغزو، لكن الأوروبي هو الذي ستكتب له الغلبة. يقدم المتحف عرضاً لتحولات البلاد التي ستعرف أولاً باسم «مملكة غرناطة الجديدة» ثم ستتخذ اسم كولومبيا. هنا حضور للآباء المؤسسين. سيمون بوليفار له الصدارة بالطبع. حرب التحرير. بداية الحروب الأهلية الطويلة يتردد صداها.

في الطابق الثالث عرض لرواد الفنون التشكيلية في البلاد. تمكن، كذلك، مشاهدة أعمال الفنانين الذين أسسوا لحداثتها الفنية: أليخاندرو أوبريغون، غوليرمو ويدمان، إدغار نيغرت، فرناندو بوتيرو، وأنريكه غرو. أعرف اسم بوتيرو بسبب أعماله الغريبة. أحجام شخوصه الضخمة. أعرف كذلك من بين من يسمون «الخمسة الكبار»، في التشكيل الكولومبي الحديث، اسم «أوبريغون» لأنه يتردد في أحاديث ماركيز. فهو من رفاق «مرحلة بارانكيا» ذات القمصان المشجَّرة. مثل ماركيز قضى أوبريغون فترة من حياته في تلك المدينة الميناء. ومثله، كذلك، تنقل بين مدن أوروبية عديدة من بينها باريس. الأحمر والأصفر ساطعان في لوحات أوبريغون، الأزرق كذلك. ريشة مشدودة. متوترة. هناك بعد درامي وصراعي واضح في موضوعات أعماله حتى تلك التي تتناول الطبيعة. رموزه محلية على ما يبدو. «الكندور» مثلاً. طائر قوي، يرمز إلى بلاده. العنف الأهلي الذي تخلل حياة كولومبيا ليس بعيداً عن أعماله، كما هو حال لوحات «بوتيرو» لكنَّ ذلك أقل وضوحاً مما هي عند الأخير الذي يكاد ينفرد بين «الخمسة الكبار» بـ «تخصصه» في العنف العاري، المرح أحياناً. «أوبريغون» رفيق ماركيز في «بارانيكا» ذو الشاربين المتصلين بسالفيه، توفي بالسرطان عام ١٩٩٢ بعد أن حاز شهرة عالمية لا تقل

عن شهرة رفيق شبابه. «ريكاردو» يطاوعه لسانه الإنكليزي حيناً فيلقي ضوءاً على ما نشاهد، ثم يصمت، حيناً آخر، لعجزه عن نقل «الكلام الفني» فيبتسم أو يهز رأسه، لكن للوحات لغة لا تحتاج إلى ترجمة كلمات من لغة إلى أخرى.

هناك أعمال جديدة تبرع بها «بوتيرو» لمتحف بلاده. تلبَّث في هذا الجناح أكثر من غيره. فهو يعكس، على ما يبدو، صوراً من حياة البلاد ومزاجها وما تعرفه من دراما سياسية على نحو يصعب أن تتفادى جاذبيته الغريبة. العنف الذي يطبع حياة كولومبيا، في العقود الأخيرة، هاجس يسيطر على أعمال بوتيرو. سيارات مفخخة، اختطافات، قتل بالبنادق القديمة التي تذكر بأفلام «رعاة البقر» أو بالسكاكين الطويلة (الماشيتي)، الدم الذي يسيل من أجساد الضحايا، «ثيمات» تتكرر في جنبات الصالة المخصصة لأعماله، أما الألوان، التي تعكس بيئة كولومبيا، فهي دائماً قوية (الأحمر، الأخضر، الأصفر). لا مجال فيها للتوسط أو الالتباس. ألوان فاقعة، حادة، خاطفة للنظر. وهذه، بالمناسبة، ألوان حافلات الركاب التي تراها في المدن الإقليمية، ومعظمها، كما لاحظت، من ماركة «شيفرن» الأمريكية ولكنها مصممة، على الأرجح للسوق اللاتينية، ليس بسبب ألوانها الفاقعة فحسب ولكن

بسبب طرزها الغريبة التي تذكر بمثيلتها في الهند وباكستان. يخبرني «ريكاردو» عن تهديد مافيا المخدرات لبويترو. لذلك لا يقيم دائماً في كولومبيا.

سأرى أعمالاً أخرى لفرناندو بوتيرو في «مديين»، مسقط رأسه. ولكن اسم هذا الفنان سيقفز، بعد فترة من زيارتي لبلاده، إلى واجهة الأحداث عندما يقيم معرضاً لفظاعات سجن «أبو غريب» الأمريكية. فقد حملت وكالات الأنباء خبراً عن معرض لبوتيرو مكرس لضحايا السجن العراقي. كأن فنان العنف والغرابة والأجساد الضخمة هذا وجد شبهاً بين ما حدث في سجن عراقي ناء على يد المحتل الأمريكي وبين عنف بلاده متعدد المصادر والأطراف. لا أعرف حافزه بالضبط. ما دار في رأسه عندما راح يرسم وينحت تلك الكتل الآدمية الضخمة التي تميز أعماله. إنه قد يكون الفنان العالمي الوحيد الذي قدم استجابة سريعة للصور والقصص المرعبة التي تسربت من «أبو غريب». لكن ما قاله بوتيرو السبعيني للصحافة العالمية عندما سئل عن معرضه المفاجئ هذا يشير إلى شعوره العميق بحجم الجرح الإنساني الذي طال بشراً نُكّل بأرواحهم وعُبِثَ بأجسادهم (النحيفة عكس شخصوص أعماله) وراء القضبان. قال بوتيرو إنه فوجئ بالغضب يتملكه، عندما كان يقرأ مقالاً

وهو يستقل طائرة، بسبب الأعمال المفزعة التي ارتكبها الجنود الأمريكيون ضد المعتقلين في العراق. «طلبت من المضيف إعطائي قطعة من الورق وبدأت أرسم على الفور. وكانت هذه هي بداية السلسلة كلها». أنتج بوتيرو ٦٠ عملاً منها ٢٠ لوحة تصور رجالاً مربوطين بسلاسل من كعوبهم في زنازين مظلمة تهاجمهم الكلاب، وسجناء مكدسين في أكوام على الأرض. لكن أشكال سجنائه وسجانيهم لا تشبه الصور التي انتشرت على نطاق واسع بعد قيام الصحافي الأمريكي سيمون هيرش بإذاعة ما يجري وراء قضبان «أبو غريب» على الملأ. لم يغير بوتيرو أسلوبه كثيراً. شخوصه السمينون في قاعة المتحف الوطني في بوغوتا يتكررون، ولكن بغضب أوضح. المميز في هذه الأعمال تلك اللمسة الكاكية المبرقعة التي أضفاها على الجلادين.

أكثر من وجه لكولومبيا

هناك بلدان في العالم تختصر، في ذهن الكثيرين، باسم أو اسمين. لكن كولومبيا تتجاوز ذلك إلى ثلاثة أو أربعة أسماء شهيرة جداً: يعرفها عشاق الأدب من خلال كاتبها العظيم غابرييل غارسيا ماركيز، ومحبو الفن التشكيلي من خلال رسامها ونحاتها الكبير بوتيرو، والشعراء من خلال مهرجان «مديين» الشهير، وتجار المخدرات من خلال أقوى زعيم «كارتيل» في العالم بابلو أسكوبار. ويعرفها، أخيراً، عشاق الأغنية.. من خلال شاكيرا مبارك، اللبنانية الأصل.. التي أدخلت إلى «البوب ميوزك» انفجارات العواطف اللاتينية، و«هزّ البطن»الشرقي.. إلى بعض الشرر السياسي المألوف في حياة أمريكا اللاتينية.. كخبز الذرة. لكنَّ كولومبيا تُعرف، أيضاً، (لا أدري إلى أي حد) من خلال واحدة من أطول الحروب الأهلية، في قارة، لعلها أن تكون أجمل قارات العالم وأكثرها تنوعاً: مناخاً وطبيعة وأعراقاً.

ذهبت إلى كولومبيا، رغم تحذير الكثيرين لي من حروب العصابات، والمخدرات، بفكرة واحدة أو فكرتين وعدت منها مكتظاً بالأفكار والصور التي غيرت، كلياً، تصوري عن ذلك البلد المترامي.

زرت عشرات البلدان من قبل (في جنوب العالم وشماله).

ولكن لا بلد من هذه البلدان يشبه كولومبيا.

لا في الطبيعة.

ولا في المناخ.

ولا في تنوع السحنات والأعراق.

ولا في حرارة الناس وطيبتهم.

قال لي البعض إنها نموذج قابل للتكرر في أمريكا اللاتينية التي لم تطأها قدماي قبل هذه الرحلة. وافق الكولومبيون الذين التقيتهم في «بوغوتا» و«مديين» و«سنتافي» و«أنفيغادو» على بعض أوجه الشبه واختلفوا في أوجه كثيرة. الفساد، البيروقراطية، الفقر، التمردات الاجتماعية التي تتخذ أحيانا شكل حروب مزمنة (المثال الكولومبي والبيروفي)، التنوع المناخي والعرقي، هي عناصر مشتركة بين معظم بلدان القارة التي غزاها الإسبان والبرتغاليون وقاموا بحملات إبادة وإخضاع ديني و«ثقافي» شامل لسكانها الأصليين، لكن هذه البلاد تختلف، حسب أقوال الكولومبيين، عن شقيقاتها اللاتينيات في أمرين اثنين: تنوع الطبيعة وغناها، وقوة حركات حرب العصابات وانقسام الموقف الأهلي منها.

***

يصر الكولومبيون على أن بلدهم الأكثر غنى وتنوعاً في الطبيعة والمناخ من أي بلد آخر في العالم. يكفي أن أورد، هنا، بعض التفاصيل والأرقام (دون الجزم بصحتها) لنعرف أن لهذا الزعم ما يبرره. فمن حيث تنوع أعراق السكان فإن الإحصاءات تشير إلى أن ٥٨٪ من عدد سكان كولومبيا البالغ ٤٥ مليون نسمة هم من «المستيزو» الذين يتحدرون من أصول أوروبية هندية، فيما يشكل الأوروبيون ٢٠٪، أما «المولاتا» الذين هم مزيج من الأوروبيين والأفارقة فيشكلون ١٤٪، في حين هناك ٤٪ فقط من أصول أفريقية، و٣٪ يتحدرون من أصول أفريقية هندية. ويبدو أن السكان الأصليين الذين لا يزالون يحافظون على شيء من الهوية والتماسك الثقافي والاجتماعي فلا تتجاوز نسبتهم ١٪ من التعداد العام للسكان.

لا تلاحظ الإحصاءات نسبة محددة للمتحدرين من أصول عربية، هاجر الجيل الأول منهم إلى كولومبيا أيام الدولة العثمانية وحملوا، لهذا السبب بالذات، إسماً لا يدل عليهم: الأتراك، «لا تركو»، وهم يتمركزون في المناطق الكاريبية وشبه الصحراوية مثل «بارانكيا»، لكن يبدو أن عددهم أقل من بلدان لاتينية أخرى مثل تشيلي والبرازيل وفنزويلا. ثمة أسماء، ذات أصول عربية (لبنانية خصوصاً) لمعت بينهم في

مجال السياسة مثل الرئيس الكولومبي السابق خوليو سيزار طربيه، ورئيسة مجلس النواب سليمى حاتم. ثمة وجوه أيضاً تظهر في التلفزيونات المحلية ذات أصول عربية فلسطينية.

من يقرأ أعمال ماركيز، التي يدور معظمها في منطقة الكاريبي (خصوصاً روايته المبكرة «في ساعة نحس») سيقع على تسميتين للمهاجرين العرب: الأتراك، والسوريين. الأولى لأنهم كانوا يحملون، حينذاك، الوثائق العثمانية، والثانية لأنهم جاؤوا من سوريا الكبرى، تحديداً من لبنان وسوريا، ويقال أيضاً من فلسطين والأردن. ويبدو أن شهرتهم في التجارة صارت مثلاً. فقد أخبرني «ريكاردو» أن هناك مثلاً كولومبياً سائراً يقرن الشطارة في التجارة.. بـ «لا تركو» أو اللبنانيين على وجه الخصوص.. فقلت له إن هذه خصلة معروفة عن اللبنانيين بيننا، فهم لا يزالون يحتفظون بهذه الشطارة التي تكاد تميزهم عن سائر أشقائهم في المنطقة.

قد لا يكون الموزاييك العرقي العجيب غريباً في أمريكا اللاتينية التي شكلت على مدار القرون الخمسة من عمر الغزو الأوروبي لها مركزاً مهماً لتجارة العبيد وهجرات أوروبية (إسبانية، خصوصاً) جاءت مع الغزو أو بعده.. فقد تجد مثله، بهذا القدر أو ذاك، في أنحاء القارة. أما بخصوص التنوع في

الطبيعة، فكولومبيا هي الدولة الأمريكية اللاتينية الوحيدة التي تقع على محيطين: الهادئ والأطلسي (الكاريبي)، ويتنوع مناخها من شبه الصحراوي إلى المداري. مروراً بالجبلي البارد. وقد لاحظت الفرق بنفسي. ففي حين كان المناخ بارداً ماطراً في «بوغوتا» (لا أدري بأية صدفة عجيبة حملت معي سترة شتوية بدت لي غنيمة حقيقية عندما وجدتها في حقيبتي)، فإنني لم أحتج أكثر من قميص أو «تي شيرت» في كل من «مديين» أو حتى بدونهما، (لو أمكن) في «سنتافي».

يصر الكولومبيون، ولابد أن يكون هذا حقيقياً، أن بلادهم تحتوي على تنوع في النباتات والحيوانات والطيور لا مثيل له في بلد آخر في العالم. فهناك نحو ١٢٩ نوعاً من الطيور، و١٣٠ ألفاً من النباتات، بما فيها ما يسمى، علمياً، «فيكتوريا أمازونيكا»، وهي أقرب إلى زنبقة ماء هائلة الحجم، حيث يمكن لأوراقها حمل طفل صغير! هذا يعني أن كولومبيا تحوي من الطيور، حسب المصادر المحلية ، أكثر مما تحوي أوروبا الغربية وأمريكا الشمالية مجتمعتين!

لحسن الحظ، كان سفري في بعض مقاطعات كولومبيا نهاراً، ومعظمه في الحافلات، ما مكنني من رؤية تنوع مذهل في النباتات والزهور ذات الألوان القوية (الفاقعة أحياناً)،

ومشاهدة وسماع أصوات طيور لم أرها أو أسمع صوتها من قبل، بما في ذلك عقبان ونسور تحلق في الوديان.

***

غادرت «بوغوتا»، مع بعض ضيوف المهرجان، بعد يومين من وصولي. كانت الطائرة التي أقلتنا ذات محركين. خضَّ أحشاءنا ترجرجها في السماء. كانت تطير على علو منخفض الأمر الذي جعلني أرى السهول والجبال والأودية والغابات التي نطير فوقها. المخيف، حقاً، هو مناورتها للهبوط في مطار «مديين». كانت الجبال ترافقنا بحيث بدا من المستحيل أن يكون هناك مطار نهبط فيه. نتحدث، نحن العرب، بإسهاب، عن جبال لبنان أو الجزائر أو المغرب، ولكن هذه تبدو مقارنة بجبال كولومبيا، علواً وتنوعاً في غطائها النباتي، مجرد تلال.. شبه جرداء. كمثال على تسيِّد الجبال جانباً من جغرافية كولومبيا يكفي أن أذكر أن مطار «مديين» يبعد عن المدينة نحو ساعتين بالسيارة.. لعدم وجود مكان منبسط أكثر قرباً. فمن المطار أخذنا بالصعود الشاق في طريق ضيقة بالكاد تتسع لمرور حافلة إلى قمة الجبل، ومن ثم رحنا نهبط، ملتفين حول الجبال التي تحيط بمديين، حتى وصلنا إلى المدينة التي تقوم على بسطة من الأرض بين جبال ضخمة

شديدة الوعورة.. شديدة الخصب كذلك. الأشجار كثيفة. قاتمة حيناً وساطعة حيناً آخر. بين هذه الأشجار التي كنت أراها من نافذة الحافلة التي أقلتنا من مطار «مديين» لفتت نظري شجرة واحدة. عالية. ذات أغصان طويلة، نحيفة. أرستقراطية الحضور. تبدو أوراقها القليلة الأنيقة، عن بعد، ذات لون فضي يلمع في الشمس، ولكن ما إن تقترب منها حتى تتبدى لك بلون أخضر فاتح مغبر بعض الشيء. رأيت شجرة الفضة المتقلبة هذه في جولاتنا بالقرب من «مديين» كثيراً. في واحدة من هذه الجولات كانت معنا شاعرة كولومبية تدعى «مونيكا». بيضاء. واضح أنها من أصول أوروبية. سألت «مونيكا» عنها فلم تعرف اسمها. لم يكن ذلك غريباً. فهي قادمة من عالم الكاريبي. سألت أحد مرافقينا من أبناء المدينة فقال إنها تسمىyarumo .. تبين لي أن لهذه الشجرة مكانها الخاص في الطب الشعبي الكولومبي. يستخدم نقيع أوراقها كمضاد للالتهابات، والربو، والروماتيزم، وأمراض الكلى، والسكري، والرعاش. أي أنها صيدلية شاملة. لا أعرف مدى دقة ذلك، ولكن سكان كولومبيا الأصليين أسبغوا على الطبيعة معاني تبدو، اليوم، أسطورية. ولعلها ليست كذلك تماماً. فالإنسان إبن الطبيعة لا بدَّ أن يكون دواؤه من الطبيعة نفسها. لا أستغرب

هذا الفهم. فأنا أتحدر من عائلة بدوية ولطالما رأيت جدتي تجد لكل داء دواءً في الأعشاب والتمتمات الدينية. هكذا، لا تبدو مختلفة، كثيراً، عن قريناتها الهنديات.

كانت «مونيكا» قادمة من «بارانيكا». هذا الاسم يحيل عندي، فقط، إلى ماركيز. لهذا الاسم وقع سحري عند من عرف عالم الكاتب الكولومبي الشهير صاحب «نوبل» ورفاقه الذين تراوح توزعهم الطبقي بين الإدقاع الاجتماعي والمالي ورفاهية الطبقة الوسطى. بين القادمين من قرى ترزح تحت مشيئة القيظ والبعوض والعزلة، وأولئك الذين يتصلون بآخر ما تنتجه الحواضر الأوروبية الكبرى. لم يكن صعباً على «مونيكا» أن تعرف من أكون. يبدو أنها رأت مثل سحنتي كثيراً. ليس لأن كولومبيا تضم خليطاً عجيباً من السحن ولكن لأنها تعرف العرب. عرب «بارانيكا» تحديداً. قلت لها إن اسمها لا يوحي بأنه من هذه البلاد، فقالت إنها تتحدر، فعلاً، من أب ليتواني وأم ألمانية مهاجرين (أحدهما يهودي الديانة كما أخبرتني). فهمت منها أنها تقيم بين العرب في «بارنكيلا» ولها صداقات شخصية وعائلية معهم. قالت: العرب.. أو على نحو أكثر دقة: اللبنانيين، ولم تقل «لا تركو»، فتلك تسمية للعرب قديمة شاعت بين الكولومبيين مع بدايات الهجرة العربية

ولم تعد تستخدم، على ما يبدو، الآن. للدلالة على معرفتها بالمتحدرين من أصول عربية، لبنانية خصوصاً، عددت لي بعض أسماء العائلات التي تعرفها مثل عائلتي «زاخم» و «عضوم». ويبدو أن للعائلة الأخيرة باعاً طويلاً في الهجرة، فقد التقيت في مهرجان «أمالفي» الشعري في إيطاليا شاعراً من البيرو يتحدر من هذه العائلة. كان في حدود السبعين من العمر. شغل مناصب دبلوماسية في سفارات بلاده في غير عاصمة ولكنه لا يعرف العربية. هو الذي أخبرني أن اسم عائلته الأصلي «عضوم» (نطقها صحيحة) وليس «أيدوم».

عندما علمت «مونيكا» أنني مهتم بماركيز دعتني للذهاب إلى «بارانيكا». قالت: نقيم لك أمسية شعرية هناك وتتعرف، عن قرب، على المدينة التي شكلت انطلاقة ماركيز الأولى.. لكن تلك الفرصة لم تتحقق، للأسف، بسبب اضطراري للعودة، سريعاً، إلى لندن. مع ذلك أطللت، بفضل الشاعرة البارانكية، على جانب من حياة تلك المدينة التي تبدو لنا، نحن قراء ماركيز، سحرية.

دهشت «مونيكا»، مثلما دهش بعض المثقفين الكولومبيين، من معرفتنا «الدقيقة» بماركيز ومجموعة «بارانكيا». ذكرني ذلك بالدهشة التي كان يبديها شعراء ومثقفون أوروبيون من

معرفتنا بمسارات الحداثة الأدبية الغربية. كان بعضهم يظن أننا لا نولي حداثتهم اهتماماً كبيراً. لم يكن في الأمر استنكار. إنهم يصدرون، على الأرجح، من فكرة تقول بتمسكنا بتقاليدنا الأدبية، وهذه الفكرة تعكس، بدورها، تصورهم للحداثة بوصفها منتجاً تاريخياً غربياً. هذا طبعاً صحيح. لكن الصحيح، أيضاً، أن «المنتج الغربي» صار، لأسباب ليس هذا مقامها، «منتجاً كونياً» شئنا أم أبينا. يمكننا، لو أردنا، أن نعيِّن سهمنا في هذه الحداثة، مثلما بوسع الصينيين واليابانيين والهنود والأفارقة أن يفعلوا، ولكن ذلك بحث في التأصيل لا يعنيني الآن. صارت رواية قصتنا مع الحداثة الأدبية الغربية مملة من فرط ما تحدثنا بها مع الذين نلتقيهم من الأدباء الأجانب، الأوروبيين تحديداً. إنها قصة طويلة ومتشعبة، وربما محزنة، تنطوي على أسماء وتيارات واحترابات لم يصل صداها إلى شواطئ قبرص! قصة حداثة أدبية وفنية في مجتمعات تتقهقر إلى الوراء.

تعليمات السلامة التي أخضعتني إليها «أندريا» في «بوغوتا» ستتكرر، على نحو أشد صرامة، في «مديين». فهذه مدينة لا لعب فيها بموضوع الأمن. إنها مدينة كارتيل المخدرات الشهير الذي تضعضع بعد مصرع زعيمه «بابلو

أسكوبار» لكنه لم ينته تماماً. هذا الأمر لا يزعج جماعة المهرجان الشعري كثيراً. فهم يعرفون أن «سمعة» المدينة تسبقها في ذهن القادمين إليها، غير أن القادمين إليها، من أمثالنا، سرعان ما يكتشفون وجهها الآخر. فمن أول أمسية شعرية سيعرفون أنهم في مدينة تحب الشعر والموسيقا والمرح.

يسار ويمين.. ومخدرات

لواحد، مثلي، عاش طوراً من الحروب في لبنان وصولاً الى الذروة: إلى الحصار الاسرائيلي لبيروت الغربية، فإن كولومبيا ليست مكاناً خطراً على نحو استثنائي. أعرف من خلال التجربة أنَّ صورة الخارج تختلف عن صورة الداخل.

كان الاسرائيليون يقصفون بيروت الغربية أثناء حصار صيف عام ١٩٨٢ بالمتر المربع، فيما «عم عمر» يطبخ لنا، في بيت هند جوهرية، الذي اتخذته الإذاعة الفلسطينية (التي عملت فيها أثناء الحصار) مقراً لغرفة التحرير، «الملوخية» حيناً و«المقلوبة» حيناً آخر، بل تمكنا، بسبب حماسة حسن عصفور لـ«الفطبول»، من مشاهدة بعض مباريات كأس العالم!

قلت لمن نهاني عن الذهاب إلى بلد تدور فيها حرب ضروس بين القوات الحكومية والميليشيات اليمينية من جهة وقوى اليسار المسلح من جهة أخرى، إن كولومبيا ليست أشد خطراً من بيروت أيام الحصار الإسرائيلي، فقال لي، صائب، إنك، أيضاً، لم تعد ذلك الشاب العشريني الذي لا تفرق خطاه المجنحة بين مصائد الموت وصبوات الحياة في شوارع بيروت.

الصورة الأسوأ عن كولومبيا في الخارج ليست الحرب، بل الخطف، حتى إن ماركيز الذي لم تدر، حسب علمي، أيّ من رواياته الشهيرة عن كولومبيا وصراعاتها الراهنة، وضع

ها نحن ذا في «دبي الثقافية» نقدم لكم هذا الإصدار للشاعر والإعلامي أمجد ناصر، واضعين نصب أعيننا ما نذرنا أنفسنا له، وهو نشر الثقافة العربية وتقديمها للقراء الأعزاء من خلال كتاب «دبي الثقافية» الشهري، مع حرصنا على التنويع في شتى مشاربنا الثقافية، تعميماً للنفع، وحرصاً على محاربة الرتابة المفضية إلى الملل، ولن نألوَ جهداً في إضافة المزيد.

سيف المري

يصدر أول كل شهر ويوزع مجاناً مع مجلة دبي الثقافية

مجلة دبي الثقافية تصدر عن دار
الصدى
للصحافة والنشر والتوزيع